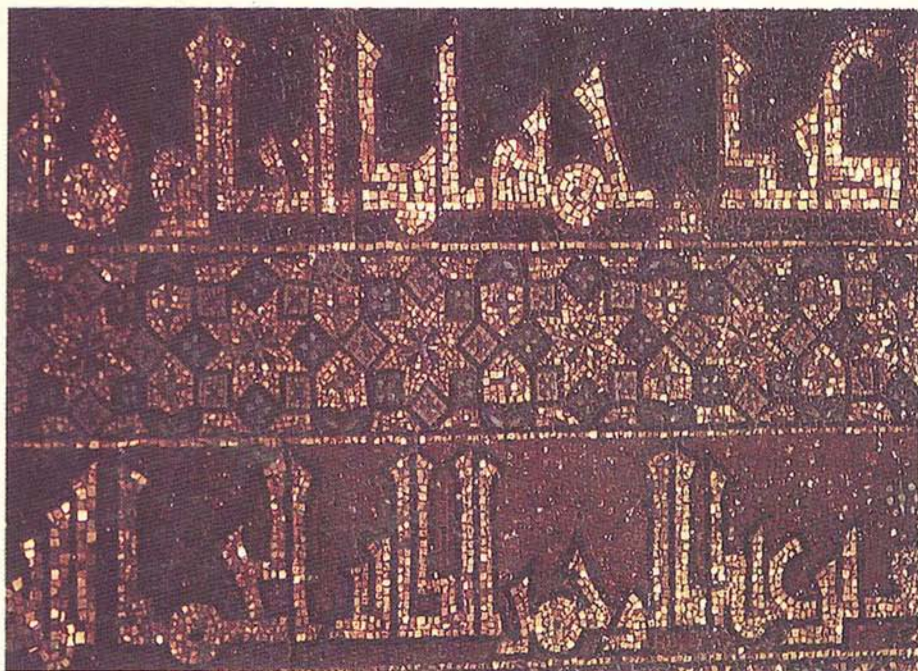
أحمد الطاهري

دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس

عصري الخلافة والطوائف



أحمد الطاهري

دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس

عصري الخلافة والطوائف

1993

صدر للمؤلف

- " عامة قرطبة في عصر الخلافة "
  دراسة في التاريخ الاجتماعي الأندلسي ، الرباط : 1989.
- " التاريخ الاندلسي من خلال النصوص "
  بالاشتراك ، الدار البيضاء : 1991.
- عدة دراسات حول تاريخ الاندلس
  في المجلات والدوريات المغربية والعربية والاسبانية 1986-1992.

الطبعة الأولى - يونيه ، 1993

الايداع القانوني : 420 / 1993
ردمك : 2 - 0 - 9574 - 9981

Estudios e Investigaciones
en la Historia de Al-Andalus
(época del califato y taifas)

إهـــــــــداء

إلى أستاذي الجليل الدكتور محمود اسماعيل
الذي أرشدني إلى البحث في تاريخ الإسلام
وتعهدني بالرعاية والتشجيع

تـقديـــــم

يسعدني أن أقدم لجمهور القراء والمهتمين بالدراسات الأندلسية هذه المجموعة من المباحث التي تتعلق بتاريخ الأندلس وهي في مرحلة الذروة خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة (العاشر والحادي عشر للميلاد) أنجزت متفرقة زمنا ، مجتمعة موضوعا خلال السنوات الست الأخيرة .

وهي تثير قضايا تتراوح بين الاهتمام بالمجتمع والوضع اللغوي ، وبأحوال الاقتصاد والتجارة ، ومستويات النمو العمراني والحضري ، بالإضافة إلى المناخ الثقافي والحياة الفكرية ، ومدى قدرة الفقه والتشريع على مواكبة ذلك ، وفق نظرة شمولية تتوخى الربط بين هذه المجالات ، في جدلية تاريخية تنحو إلى الإحاطة بمختلف العناصر الفاعلة والمتفاعلة في الواقع ، وتستهدف الغوص في العمق للكشف عن الأسس المتحكمة في المسار التاريخي العام ، اعتمادا على أوثق المصادر الأندلسية المطبوعة والمخطوطة.

ومن خلال تفكيك المادة العلمية لعينة من المصادر الأندلسية - ويتعلق الأمر بكتاب نفح الطيب ، وبعض مصنفات لحن العوام - وتحليل مضامينها وتوثيق مصادرها المعرفية ، وإجراء قراءة واسعة وجرد لعدد من كتب التراجم والطبقات ، وإخضاع مجموعة من كتب النوازل والأحكام الفقهية للدرس ، يتجلى حجم الإمكانات التي تقدمها المكتبة الأندلسية للبت في عدد من القضايا التي ظلت لحد الآن مغيبة عن دائرة البحث والاهتمام .

ولعل في توسيع المناهل المعرفية - لتشمل فضلا عن المصنفات السالفة، محتويات كتب الطب والفلاحة والنبات ، ومصنفات الملل والنحل ، والفكر والتصوف ، وكتب النظم والسياسة والكلام ، والمسالك والممالك والمعاجم الجغرافية ، وبقية كتب اللغة ، والمصنفات الأدبية ، والحكم والأمثال ، وكتب الحسبة والوثائق والسجلات ، ناهيك عن الحوليات التاريخية وغيرها من أصناف التآليف التي تند عن الحصر في هذا المقام - ما يقدم للبحث التاريخي المعاصر الوسائل الكفيلة لتجاوز طابع التعميم والتجزيئ ، والارتقاء من مرحلة الجرد والسرد والتبسيط ، إلى مستوى الشروع في معالجة الغموض الذي مازال عالقا بأكثر من جانب في تاريخ القرنين الرابع والخامس ، اللذين يمثلان الذروة في العطاء الحضاري بمجموع الغرب الإسلامي . وهي المرحلة التي ما زادتها القرون التسعة اللاحقة - في تصوراتنا - إلا اضطرابا وتداخلا وتعقيدا . ويبدو أن الانفتاح على رحابة هذا التراث المتعدد المستويات ، كفيل بمراجعة القول الشائع بشح المادة ، وقصورها عن مسايرة تطلعات البحث المعاصر.

وبهذه المجموعة من الأعمال ، نرجو السير خطوة في هذا المنحى.

والله ولي التوفيق

الجمعة 10 جمادى الأولى 1413

أحمد الطاهري

طبقة العامة في المجتمع الإسلامي

إمكانية البحث من خلال النموذج الأندلسي

نشر هذا البحث ضمن أشغال ندوة : جوانب من التاريخ الإجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط: منشورات كلية الآداب ، مكناس 1991 : صفحات 61 - 72.

من المتعارف عليه بين المهتمين بالتاريخ الإسلامي الوسيط ، أن الكثير من قضاياه مازالت قائمة لم يحسم فيها بعد ، ويزداد انتباه الدارسين إلى المواضيع التي تحتاج إلى المزيد من العناية ، في حين لم تثمر الدعوات المتكررة للاهتمام بالتاريخ الاجتماعي ما يكفي من التراكم المعرفي لتحقيق قراءات أكثر تكاملا ودقة وشمولا لتاريخ الإسلام . ولا غرو فثمة عنصر فاعل في الاقتصاد والمجتمع والسياسة والفكر ظل لحد الآن خارج دائرة الكتابة التاريخية ، ويتعلق الأمر بالفئات الاجتماعية الدنيا التي تتحمل ثقل النشاط الاقتصادي وتكون الغالبية العظمى في قاعدة الهرم الاجتماعي.

وفي استقراء المصادر التاريخية مالا يدع مجالا للشك في التأثير الذي مارسته هذه الفئات على التطور التاريخي للمجتمعات الإسلامية بالمشرق والمغرب على السواء. وبصرف النظر عن الإشارات التي تقدمها كتب السيرة والمغازي[1] عن فعالية العامة " من أحداث الرجال وضعفاء الناس"[2] منذ البدايات الأولى، خلال فترة الدعوة النبوية، فكثيرة هي الدلائل الكاشفة عن مشاركتها الفعلية في صياغة أحداث العصر الراشدي[3] وعن مراعاة الخلفاء وأهل الحل والعقد لثقلها السياسي المتعاظم[4] وتقدم المصنفات التاريخية[5] التي تناولت المراحل اللاحقة ، القرائن الدالة عن تزايدأهمية

1 - انظر ابن شهاب الزهري : المغازي النبوية : تحقيق سهيل زكار: دار الفكر دمشق 1980 ص : 58 - 59.

2 - نفسه ص 46 .

3 - ابن هشام : السيرة النبوية : تحقيق السقا / الابياري / شلبي الكتب العلمية ج 4 : 661 .

4 - ابن قتيبة : الامامة والسياسة : تحقيق طه محمد الزيني : دار المعرفة بيروت ج 1: 30 الشهر ستاني : الملل والنحل: تحقيق محمد سيد كيلاني : دار المعرفة بيروت 1982 ج 1 : 155.

5 - انظر على سبيل المثال : الطبري : تاريخ الامم الملوك : المطبعة الحسنية : الطبعة الاولى 1323 هـ: ج 10 : ص 175-76 و 181 - 83 ، المسعودي : مروج الذهب : القاهرة 1938 : ج 2 : 125 - 26 و 334- 35 و ج 4 : 193 ، مسكويه : تجارب الأمم :نشر مرجليوث : ج 1 : 24 - 25 و 72 - 75 و ج 2 : 303 - 306 و 327 - 28 وغيرها من المصادر التاريخية .

العوام وإن بدرجات متفاوتة – طوال العصر الوسيط . ويبدو أن النمو الحضري والتطورات الطارئة على بنية ، وخصائص ودور المدينة الإسلامية قد وفر المناخ الملائم لإنطلاق فعالية هذه الفئات المغمورة على كافة المستويات . في حين ساهمت الشروخ التي مست البنيات القبلية والعشائرية ، وتراجع أهمية النسب في تحديد المواقع الاجتماعية، في إعادة هيكلة العلاقات الاجتماعية على أسس جديدة ، ومتداخلة في نفس الوقت مع الأسس القديمة . وتقدم الأندلس في عصر الخلافة الحقل النموذجي لمعاينة هذه الحقيقة . فعلى المستوى الاجتماعي تمكن عوام قرطبة من التميز كطبقة عن بقية الشرائح الاجتماعية ، في حين تجاوزوا سياسيا مستوى التأثير والمشاركة في صيرورة الأحداث إلى التحكم في مصير البلاد بالسيطرة على مقاليد السلطة أكثر من مرة[6].

ومما يستدعي الانتباه ، أنه في مقابل هذا الاهتمام الجزئي الذي خصصته الحوليات التاريخية المتداولة ، يكاد يكون إهمال التأريخ لهذه الفئات الاجتماعية مطلقا لدى المحدثين . فباستثناء العناية المحدودة التي حظيت بها بعض جوانب الموضوع[7] لم تخصص للعامة أية دراسة مستقلة ومتكاملة ، بل وحتى كتب التاريخ العام صمتت عن ذكرهم ، ولا يتعدى ماورد عنهم في بعضها مستوى الإشارات العابرة . قليلة هي الدراسات[8] التي تنبهت ونبهت – وإن كان في سياق تناولها لقضايا أخرى – إلى أهمية المسألة.

ولعل في هذه المؤشرات والملاحظات ما يحث على التفكير في إمكانيات تجاوز مستوى الدعوة والتنبيه ، للشروع عمليا في إعادة بناء هذا الجزء المبتور من تاريخ الإسلام الاجتماعي . إلا أن ثمة عراقيل تقف في وجه تحقيق هذا المشروع التاريخي ، منها ما يتعلق بحجم المادة التاريخية ، ومنها ما يرتبط بالغموض والارتباك بخصوص الأسس المعتمدة في التصنيف الاجتماعي وبدلالات مفهوم ومصطلح العامة .

---

6 – لمزيد من التفاصيل انظر: احمد الطاهري : ثورة العامة بقرطبة في عصر الخلافة : مجلة البحث العلمي : عدد 36 سنة 1986 : ص 91 – 119 .

7 – نذكر منها على سبيل المثال الدراسات التي انجزها بعض المستشرقين حول الفتوة والنقابات والأصناف ببعض الحواضر الإسلامية ، أمثال برنارد لويس ، وكلود كاهن ولويس ماسنينون والسيف نيكتا وميخائيل كافرلوف وجان كلود فادي وغيرهم . فضلا عن دراسات عبد العزيز الدوري وصباح الشخيلي والعلي صالح أحمد وبدري محمد فهد. ولقد صدرت مؤخرا بباريس دراسة لسيمحا صاباري حول الحركات الشعبية ببغداد خلال العصر العباسي ق 9–11 م .

8 – أخص منها بالذكر دراسات محمود اسماعيل ، انظر : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي .

فبخصوص النقطة الأولى ، من الملاحظ أن إشارات الحوليات التاريخية تقتصر على الفترات التي طغى خلالها دور العوام على سطح الأحداث . وأغلب ما تقدمه يكون إما عرضا أواضطرارا واحتراما لارتباط الوقائع . فبالنسبة لعوام الأندلس خلال عصر الخلافة ، تكتفي كتب التاريخ بعرض بعض تحركاتهم السياسية والعسكرية خلال فترة محدودة لا تتجاوز سنوات الفتنة ، في حين يكاد صمتها يكون مطبقا بالنسبة للفترة الطويلة الممتدة من خلافة الناصر إلى حجابة عبد الرحمن شنجول . ويكشف الحجاري[9] عن بعض دوافع هذا الإهمال بقوله :" إن مؤلفي هذا الأفق طمحت هممهم عن التأليف في هذا الشأن " وليس أدل على ذاتية الدوافع الكامنة وراء هذا التهميش من تفنن أهل القلم في صياغة عبارات القدح والتغليظ للعامة كلما اضطروا إلى ذكرهم فهم "المفسدون"[10] حسب ابن الأثير ، ومن "أهل الفسق والدعارة" على حد تعبير الطرطوشي[11] وينعتهم ابن عذاري[12] ب " الصقورة الفتاك" وهكذا دواليك . وتزخر المصادر القديمة بعبارات مرادفة للعامة، تنم عن روح الاحتقار تجاه هذه الفئات الاجتماعية[13] وفي الأندلس نعت خليفتهم ابن عبد الجبار بما يؤكد نفس الحقيقة[14].

مع ذلك ، فالجدير بالملاحظة أن الفكر العربي الإسلامي لم يقف برمته موقفا سلبيا متجاهلا للعامة . فبصرف النظر عما كتب في المجال اللغوي عن " لحن العامة "[15] - وإن كان من موقع الحرص على نقاوة اللغة العربية ، والوقوف على ما " أفسدته" العامة - لم يجد البعض[16]

---

9 - أنظر: المقري : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب : تحقيق إحسان عباس : دار صادر بيروت 1986 : ج 3 : 156.

10 - الكامل في التاريخ : ليدن : 1862 : ج 8 : 477 .

11 - سراج الملوك : القاهرة 1319 هـ : 42 .

12- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : تحقيق كولان / بروفنسال: دار الثقافة بيروت 1988 : ج 3 : 127.

13 - مثل السواد ، الأوغاد ، الدهماء ، الطغام ،السفلة ، الغوغاء ، الرعاع ،الحرافيش الخ.

14 - انظر ابن عذاري : المرجع السابق :ج 3 ص 52 - 89 و94 ، ابن الخطيب: أعمال الإعلام :نشر بروفنسال : رباط الفتح: 127.

15 - انظر عبد العزيز مطر: لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : دار المعارف : الطبعة الثانية: القاهرة 1981، ولقد خصصت للهجات العامية بالغرب الإسلامي الوسيط رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة سنة 1978 من طرف هولان بتير.

16- المقصود ، الزجالي : أمثال العوام بالأندلس : تحقيق ونشر بنشريفة : مطبعة محمد الخامس فاس 1971-1975.

غضاضة في جمع ورصد أمثالهم . في حين تجرد بعض المتكلمين[17] للتصنيف في الحدود التي تلزم انضباط العامة في ميدان العقائد . ولعل في إقدام الجاحظ على تأليف كتاب في "أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة "[18] والتصنيف في "الفخار والمؤاجرين"[19] ما يؤكد الشعور بالحيف الذي تعرض له هؤلاء والرغبة في الإنصاف والانتباه منذ فترة مبكرة إلى أهمية الكتابة عن العامة . في حين تطالعنا بعض مكونات الفكر العربي الإسلامي[20] بمواقف مبالغة في تبجيل العوام وإبراز أهميتهم .

إن الوقوف على تحامل أهل القلم القدامى بلا هوادة على العامة ، والتأكد من ذاتية مواقف أغلبهم تجاه هذه الفئات الاجتماعية كفيل بإشعارنا بمخاطر الانسياق وراء التصورات التي قدموها عن هذا الجانب الاجتماعي المغمور ، تلك التصورات التي مازادتها الدراسات الحديثة إلا رسوخا . فإذا كانت نظرة الاحتقار واللا مبالاة قد أثرت سلبا على كمية المادة التاريخية ، فمن شأن هذه الملاحظات توضيح نوعية هذه المادة . ومما يدعو إلى الحذر من الانسياق وراء مضامينها افتقارنا - باستثناء ما وصلنا من أمثال العوام - إلى وجهة نظر عامية ، مما يقلل من إمكانيات المقارنة والمقاربة بين النصوص . ولعل في تنوع مواقف القدامى من العامة ، وحفاظ مصنفاتهم ، إن عرضا أو اضطرارا على بعض الإشارات ، ما يقدم منطلقات أولية للتأريخ لعوام العديد من حواضر العالم الإسلامي الوسيط ، وما يقلل من موضوعية بعض الكتابات الأجنبية التي انطلقت من ندرة الوثائق للقول باستحالة كتابة تاريخ الإسلام الاجتماعي .

وأعتقد بأن في توسيع دائرة المصادر لتشمل مختلف كتابات العصر الوسيط ما يمكن من سد الثغرات الواسعة في الحوليات التاريخية ، للإحاطة بمختلف الجوانب المتعلقة بهذه الطبقة الاجتماعية . فكم من مصدر ثانوي ، يقدم عفوا مادة تاريخية غير منتظرة وفي غاية الأهمية[21] ومن

---

17 - أخص منهم بالذكر الغزالي : إلجام العوام عن علم الكلام : دار الكتاب العربي بيروت 1985 ، وتتضمن بقية مصنفاته معلومات مفيدة في هذا المجال .

18 - انظر : التاج في أخلاق الملوك : دار الفكر بيروت 1955 : ص 37 .

19 - انظر : عبد القاهر البغدادي : الملل والنحل : دار المشرق بيروت 1970 : 124 .

20 - إخوان الصفا : الرسائل : تحقيق خير الدين الزركلي : المطبعة العربية : القاهرة 1928 ج 1 : 121 .

21 - فعلى الرغم من تأخر تصنيف كتاب تاريخ قضاة الاندلس للنباهي المالقي ،وعلى الرغم من كونه مصنفا في الطبقات، فلقد احتفظ بنص فريد وهام عن مظاهرة للعامة بقرطبة خلال الحجابة العامرية. وبالمثل احتفظ مخطوط "ذكرمشاهير أهل فاس في القديم" لمجهول، عرضا بنص أندلسي فائق الاهمية، بما يتضمنه من معلومات دقيقة عن شرائح العامة بالاندلس وتركيبها الاثني- الطائفي وروابطها الحرفية. مخطوط الخزانة العامة الرباط: رقم د 1394 .

شأن الانتباه إلى قيمة المادة الواردة في مصادر لم تستغل بعد بالوجه الأكمل ، التقليل من صحة الطروحات السابقة ، فبالنسبة للأندلس تقدم كتب الأحكام والنوازل الفقهية[22] وكتب الحسبة والخراج[23] وكتب الجغرافيا والفلاحة معلومات دقيقة وكفيلة بإضاءة جوانب هامة من تاريخ العوام الاجتماعي والاقتصادي في حين تساهم كتب التراجم والطبقات والأنساب في الوقوف على الحركية الاجتماعية[24] والإمساك ببعض خيوط التركيب الأثني والطبقي للعامة. ولا تخفى أهمية الأحكام السلطانية وكتب الملل والمناظرات الكلامية في إثراء الجوانب السالفة ، وفي الكشف عن المناخ الفكري العام الذي يقدم منطلقا للبحث في علاقات العامة بمختلف الاتجاهات الفكرية[25] تأثرا وتأثيرا . أما كتب "لحن العامة" فبالإضافة لكونها سجلا لبعض المفردات العامية وكشافا عن التأثير الذي مارسته هذه الفئات المهمشة على إحدى مواطن القوة في الثقافة العالمة الوسيطة : اللغة العربية ، فأنها تتضمن تدقيقات في بعض الأدوات والمصنوعات والتقنيات والأصناف الحرفية والمقاييس وأصناف المأكولات وغيرها من المعلومات المفيدة للتاريخ الاجتماعي والاقتصادي . إن في هذه المظان جميعا ما يؤكد خطأ ومبالغات القول[26] بعجز البحث التاريخي عن تناول القضايا الاجتماعية، وما يقلل من أهمية المقترحات التي قدمت بصدد إمكانية اللجوء إلى وسائل بحث بديلة[27].

وبخصوص النقطة الثانية ، يلاحظ الخلط في الدراسات التاريخية لدى استعمال مقاييس التصنيف الاجتماعي بين المضمون الإثني - الطائفي والديني والمضمون الطبقي . وبالنسبة للأندلس، تم تخريج خريطة اجتماعية معتمدة تتداخل فيها هذه المضامين جميعا ، وتتضمن :العرب، البربر المولدين ، المستعربين ، اليهود والصقالبة . والجدير بالذكر أن هذه الخريطة سرعان ما تحولت إلى إطار نظري لا ينطبق كليا مع الواقع التاريخي فخلال عصر الخلافة كانت الشروخ داخل هذه العناصر

---

22 - اخص منها بالذكر نوازل ابن سهل وفتاوي ابن رشد ونوازل الونشريسي.

23 - أمثال كتاب الحسبة لابن عبدون وأحكام السوق لإبن عمر ، وفي اداب الحسبة للسقطي المالقي وغيرها .

24 - فكثيرة هي المعلومات والنصوص التي تتحدث عن عناصر وأفراد من بيوتات عريقة في النسب والشرف والهمة أصبحوا في غمار الناس . ويكفي للتأكد من ذلك استعراض تراجم مثل: أنساب العرب لابن حزم ، والصلة لابن بشكوال وغيرها .

25 - انظر : العامة والاتجاهات الفكرية بالأندلس : أحمد الطاهري : دراسات عربية : عدد 3 يناير 1986 وهو متضمن في هذا الكتاب : المقال السابع .

26 - Pierre Guichard : "Al-Andalus estructura antropölogica de una sociedad Islamica en occiente: Barral Barcelona 1976 : p 9.

27 - Ibid : pp : 302-15

والطوائف من القوة أن أدت إلى حدوث تداخل واندماج حقيقيين ، مما أفضى إلي تزايد أهمية الحركية الاجتماعية والطبقية ، وتدريجيا أصبح الأساس الطبقي أكثر تحديدا للواقع الاجتماعي ، في حين تهمشت الانتماءات العنصرية والطائفية بل وحتى الدينية بشكل ملحوظ . ولقد انصب اهتمام الدراسات على العناصر الاجتماعية انطلاقا من التصنيفات السالفة الذكر ، مما ساهم في تغييب العامة كموضوع عن دائرة الاهتمام والبحث التاريخيين . في حين تمحورت نقاشات المهتمين بدراسة الروابط الحرفية حول موضوع التشابه والاختلاف بين الأصناف الإسلامية والنقابات الأوربية[28] مما جعلها عاجزة عن تقديم تصور تاريخي عن بنية وطبيعة وخصائص هذه الروابط ، ولعل في غلبة المنظور الطائفي العمودي للمكونات الاجتماعية للمدن الإسلامية ما يساهم في التقليل من أهمية نتائج هذه الدراسات في الكشف عن بعض شرائح العامة .

ولقد تظافر هذا الخلط المنهجي مع هزالة التراكم المعرفي ، ليستمر مفهوم العامة كطبقة اجتماعية مضببا في استعمالات الدراسات المعاصرة ، فهي تشمل حسب البعض[29] كل " من لا يملكون وسائل ثابتة من وسائل الرزق " ويعمم آخرون[30] هذا المفهوم على كل الذين "عاشوا حياة شاقة" ، في حين يقتصر لدى غيرهم[31] على "القوى المنتجة" . ومن الخطأ على ما يبدو ، اعتماد مقاييس نظرية جاهزة لحصر العامة ، خصوصا وأنهم ليسوا طبقة اجتماعية واحدة محددة . فالمفهوم ينسحب على بعض الفئات ويرتفع عنها تبعا لطبيعة المرحلة التاريخية .

وعلى غرار كتب الأوائل التي حافظت على تقسيمات اجتماعية باعتماد معايير طبقية[32] تطالعنا العديد من المصادر العربية بتصنيفات للطبقات بدار الإسلام ، مميزة إياها تارة حسب الوظائف[33] وتارة حسب المستوى الثقافي[34] وأخرى حسب المستوى المعاشي أو المعايير الأخلاقية.

---

28 – انظر : كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية : ترجمة بدر الدين قاسم : بيروت 1977 : 139 وكذلك : Levi Provençal Espana musulmana. P: 178.

– موريس لومبار : الاسلام في عظمته الأولى : ترجمة ياسين حافظ : دار الطليعة الطبعة الأولى بيروت 140°

– أحمد مختار العبادي :الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية : عالم الفكر المجلد 11 العدد الأول يونيو 1980 : 137

29 – كلود كاهن : المرجع السابق 135.

30 – Provencal : op-cit p : 110

31 – محمود اسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الاسلامي : دار الثقافة : البيضاء 1980 :ج 2 : 193.

32 – انظر عن بعض هذه الكتب :الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك : المرجع السابق.

33 – اخوان الصفا : الرسائل : ج1 : 248.

34 – العقد الفريد : ابن عبد ربه : دار الكتب العلمية بيروت : ج 2 : 81 ، انظر كذلك المعيار المغرب للونشريسي : طبعة وزارة الأوقاف : ج1 : 122.

وهكذا لتخرج بلوائح تطول أو تقصر باختلاف المقاييس المعتمدة . على أنه من المشاع لدى القدامى ، التمييز بين طبقتين رئيسيتين هما : الخاصة والعامة إلا أن هذا التمييز لا يحمل دائما دلالات طبقية ، وعلى الرغم من عدم خضوع هذا التصنيف العام لضوابط دقيقة ، فقد حددت مجموعة من الخصائص[35] المميزة للفئات التي ينسحب عليها كل مفهوم على حدة . وبقدر ما تساعد هذه الخصائص في التعرف على أحوال العامة، وبقدر ما تفيد عند التدقيق في طبيعة المادة التاريخية القابلة للاستغلال في هذا المجال ، بقدر ما تمتنع عن اعتمادها كمعايير علمية للتصنيف الاجتماعي . ولقد تميز إخوان الصفا[36] عن غيرهم من أهل القلم القدامى بالدقة والإنصاف عند تحديدهم العامة في أولئك الذين " فنيت أبدانهم في خدمة أهلها (الدنيا) وكثرت همومهم من أجلها ولم يحضوا بشيء من نعيمها " .

وأعتقد أنه بدل اللهث وراء النقاشات النظرية حول مدى صلاحية استعمال مفاهيم الطبقة أو الفئة أو la masse ، والتدقيق في الحدود المتداولة لمعاني ودلالات جميع هذه المفاهيم ، فالأجدر تحديد المضمون - أي الشرائح المختلفة - التي تكون ما يمكن أن يصطلح على تسميته " العامة " وذلك انطلاقا من دراسة مدققة ومفصلة للأساس الاقتصادي . مع التركيز على رصد مختلف أشكال العلاقات المتمحورة حول العائدات الزراعية بين الملاكين والمزارعين والدولة ، وتتبع مختلف الأنشطة الحرفية - الصناعية والتجارية بالمدن ، فضلا عن الخدمات المتنوعة المرتبطة بالنمو الحضري .وبالنسبة للأندلس تسعف المادة التاريخية للقيام بتحديد مختلف الشرائح المكونة لطبقة العامة وتبيان وضعيتها بين سائر الطبقات الأخرى . وأعتقد أن تحديد مضامين مفهوم العامة انطلاقا من دراسات تاريخية عن فئاتها الاجتماعية بدار الإسلام شرقا وغربا ، وبتغطية مراحل تاريخية مختلفة ، هو الكفيل بدفع النقاشات النظرية إلى تجاوز الطابع التأملي ، وإلى الإسهام في إثراء البحث التاريخي .

---

35 - انظر على سبيل المثال : الجاحظ : المرجع السابق : 25 ، ابن خلدون : المقدمة تحقيق علي عبد الواحد وافي : ج 3 : 917 - 922 ؛ الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد : دار الكتب العلمية بيروت 1983 : ص 10 وكذلك رسائل الجاحظ : القاهرة 1324 هـ :ص 180 ، المسعودي : مروج الذهب : القاهرة 1983 ج 2 :335 الطرطوشي :المرجع السابق : 125.

36 - المرجع السابق ج1 : 258.

لائحة المصادر

1 - ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ليدن 1862.

2 - ابن الخطيب : أعمال الإعلام : نشر ليفي بروفنسال : رباط الفتح 1927.

3 - ابن خلدون : المقدمة : تحقيق علي عبد الواحد وافي : القاهرة 1957.

4 - ابن شهاب الزهري : المغازي النبوية : تحقيق سهيل زكار : دار الفكر دمشق 1980.

5 - ابن عبد ربه : العقد الفريد : تحقيق مفيد محمد قميحة : دار الكتب العلمية : بيروت 1983.

6 - ابن عذاري : البيان المغرب : تحقيق بروفنسال / كولان : بيروت 1980.

7 - ابن قتيبة : الامامة والسياسة : تحقيق طه محمد الزيني : دار المعرفة بيروت بدون تاريخ .

8 - ابن هشام : السيرة النبوية : تحقيق مصطفى السقا / ابراهيم الابياري /عبد الحفيظ شلبي "دار الكتب العلمية " بدون تاريخ .

9 - إخوان الصفا : الرسائل : خير الدين الزركلي : المطبعة العربية القاهرة 1928.

10 - البغدادي : (عبد القاهر) : الملل والنحل : دار المشرق : بيروت 1970.

11 - الجاحظ

أ - التاج في اخلاق الملوك : دار الفكر : بيروت 1955.

ب - الرسائل : القاهرة 1324 هـ.

12 - الزجالي : أمثال العوام بالأندلس : تحقيق بنشريفة : مطبعة محمد الخامس :فاس 1971-1975.

13 - الشهرستاني : الملل والنحل : تحقيق محمد سيد كيلاني : دار المعرفة : بيروت 1982.

14 - الغزالي :

أ - الجام العوام عن علم الكلام "دار الكتاب العربي" بيروت 1985.

ب- الاقتصاد في الاعتقاد "دار الكتب العلمية " بيروت 1983.

15 - الطبري : تاريخ الامم والملوك : المطبعة الحسنية : الطبعة الاولى 1323 هـ .

16 - الطرطوشي : سراج الملوك : القاهرة 1319 هـ.

17 - مجهول : ذكر مشاهير أهل فاس في القديم : مخطوط المكتبة العامة الرباط : رقم 1394.

18 - المسعودي : مروج الذهب : القاهرة 1938.

19 - مسكويه : تجارب الامم : نشر مرجليوث : القاهرة 1914.

20 - المقري نفح الطيب : تحقيق احسان عباس : دار صادر : بيروت 1968.

21 - الونشريسي : المعيار المغرب : نشر وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية : الرباط 1981.

22 - احمد الطاهري : ثورة العامة بقرطبة في أواخر عصر الخلافة : مجلة البحث العلمي المعهد الجامعي للبحث العلمي : الرباط : 1986 عدد 36.

23 - أحمد مختار العبادي : الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية : عالم الفكر : المجلد 11: العدد الأول : يونيو 1980.

24 - عبد العزيز مطر : لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : دار المعارف : الطبعة الثانية: القاهرة 1981.

25 - كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية : بدر الدين قاسم : بيروت 1977.

26 - محمود اسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الاسلامي : دار الثقافة : البيضاء 1980.

27 -

Pierre Guichard : Al-Andalus : Estructura antropologica de una sociedad islamica en occidente : Barral : Barcelona 1976.

28 -

levi provencal : Espana musulmana hasta la caida del califato da cordoba : traduccion E. Garcia Gomes in colleccion Historia de Espana tomo V Madrid1957

أدب لحن العوام بالمغرب والأندلس

قـراءة وتقويـــم

البحث في الأصل مساهمة في الملتقى الثالث للدراسات المغربية الأندلسية ، نشر ضمن : "التراث المغربي الأندلسي : التوثيق والقراءة" : منشورات كلية الآداب ، تطوان 1991.

من المتعارف عليه بين المهتمين بالتاريخ الاجتماعي أن طبقات العوام لم تنل كل ما تستحقه من الاهتمام . وذهبت بعض الدراسات[1] إلى حد القول بتعذر تكوين تصور متكامل عن عديد من قضايا الماضي العربي الإسلامي دون استدراك ذلك . ولعل في العناية بأدب لحن العوام ، جمعا وتحقيقا ، قراءة وتأملا ، مايساهم في رصد بعض مواطن الخلل في تصوراتنا تجاه الماضي اللغوي ، ومايقدم عناصر جديدة لمراجعة أكثر إيجابية لدور العوام في الميدان اللغوي .

وفي استحضار الظروف الاجتماعية التي صاحبت بروز هذا النوع من التأليف، واستقراء التطورات اللاحقة ، مايساهم في فهم العوامل التي تحكمت في ميلاده خلال القرن الهجري الثاني[2] وفي استمراريته بعدئذ وشموليته لجناحي دار الإسلام بالمشرق والمغرب . يلخص ابن قتيبة[3] الارتباط الوثيق بين ظاهرة اللحن والتحولات العميقة والشاملة التي رافقت فترة التأسيس في رواية شهيرة وبالغة المعنى ، نصها :"دخل أعرابي السوق فسمعهم يلحنون ،، فقال : سبحان الله يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولانربح ": ولقد كان الزبيدي[4] أكثر توضيحا لدور التطور المديني الهائل والتفاعل الاجتماعي والثقافي العميق في الفصل بين مرحلتين لغويتين بقوله :" لم تزل العرب في جاهليتها وصدر إسلامها تبرع في نطقها بالسجية وتتكلم على السليقية حتى فتحت المدائن ومصرت الأمصار

---

1 - أحمد الطاهري : عامة قرطبة في عصر الخلافة : دراسة في التاريخ الاجتماعي الاندلسي : منشورات عكاظ: الرباط 1989 : ص 7.

2 - يعتبر كتاب ما تلحن فيه العامة لابي الحسن علي بن حمزة الكسائي المتوفى سنة 189 هـ أقدم الكتب المصنفة في لحن العامة، ولقد حققه رمضان عبد التواب : مكتبة الخانجي : القاهرة 1982.

3 - عيون الأخبار :المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر: القاهرة 1964 ص159.

4 - لحن العامة : تحقيق عبد العزيز مطر : دار المعارف : القاهرة 1981 ، ص ص 34 - 35 .

ودونت الدواوين ، فاختلط العربي بالنبطي والتقى الحجازي بالفارسي ودخل الدين أخلاط الامم وسواقط البلدان فوقع الخلل في الكلام وبدأ اللحن في السنة العوام ".

ماكان لهذا المنحى في بلاد المغرب إلا أن يستفحل ، خصوصا لدى الأجيال اللاحقة، فلقد " فشا اللحن وكثر بعد اختلاط الناس وكثرتهم ونشوء الذرية على مافسد من نطقهم" على حد تعبير أحد اللغويين[5] في حين يكشف ابن حيان عما آل إليه الوضع اللغوي بالأندلس في أواخر عصر الخلافة بالقول :" فامحى لذلك رسم الأدب بها ، وغلب عليها العجمة وانقلب أهلها إلى العامية الصريحة "[6] ويبدو أن هذه الوضعية ازدادت رسوخا خلال القرن الخامس الهجري . ورد في نص رسالة لأحد ملوك الطوائف إلى وزير مصريّ : "أن أهل مغربنا مرتضعون العجمة مدرعون الحشمة بمصاقبة الثغور ومجاذبة الألسن الثقيلة ، وممازجة الأمزجة الكليلة "[7] وفي نص بالغ الدلالة لابن مكي الصقلي[8] مايكشف عن شمولية هذه الظاهرة لمناطق أخرى من بلاد المغرب وعن الدوافع التي حفزت أهل القلم بهذا الجناح من دار الإسلام إلى تكثيف التأليف ، هم كذلك ، في ميدان لحن العوام ،إذ قال :" هجم الفساد على اللسان وخالطت الاساءة الاحسان ودخلت لغة العرب فلم تزل كل يوم تنهدم أركانها وتموت فرسانها حتى استبيح حريمها وهجن صميمها وعفت أثارها وطفئت أنوارها ".

أسفرت هذه المجهودات عن ثروة لغوية هامة في هذا المجال ، وتقدم الفهارس البيبليوغرافية [9] وكتب التراجم والطبقات[10] وغيرها من المصادر القديمة[11] لوائح مستفيضة بعناوين كتب لحن العوام التي ألفت بالمشرق الاسلامي وبالمغرب والأندلس طوال عدة قرون . مما يؤكد أن قصور أهل القلم

---

5 - نفسه ، ص 35.

6 - انظر : ابن بسام :الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : تحقيق احسان عباس : الدار المغربية للكتاب : ليبيا-تونس 1981 : ق 1 م 1 ، ص 67 .

7- نفسه : ق 3 م 1 ، ص 401 .

8- تثقيف اللسان وتلقيح الجنان : تحقيق عبد العزيز مطر : دار المعارف : القاهرة 1981 ، ص 43

9- انظر :فهرست ابن النديم : دار المعرفة : بيروت صفحات - 85 و 87 و 116 وكذلك فهرسة ابن خير الاشبيلي : تحقيق فرانسيسكو كوديرا : مؤسسة الخانجي الطبعة الثانية: القاهرة 1963 : صفحات : 346 و 347 و 348 .

10 - انظر القفطي : انباه الرواة على أنباء النحاة : تحقيق ابو الفضل ابراهيم : دار الفكر العربي ، القاهرة 1986 ، ج 1 صفحات 71 و 77 و 185 ج 2 ، ص62 ، ج 3 ص 286 ، ج 4 : ص187.

11 - ابن مكي الصقلي : المصدر السابق : 324 انظر كذلك : ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب : تحقيق محمد الاحمدي ، دار التراث : القاهرة ج2 ، 1976 ، ص 275 و ابن الخطيب : الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي : القاهرة ، م 3 الطبعة الأولى 1975 : 145.

القدامى لم يكن كميا[12] مع ذلك ، فـمن الملاحظ أن جـزءا هامـا من هذه الثروة مـازال بين المفقـود والمخطوط ، ومازالت ملاحظة أحد الدارسين[13] بأن " المتداول من كتب المتقدمين في لحن العوام قليل جدا بالنسبة لما وضع فيها" سارية المفعول ، رغم المجهودات القيـمة لثلة من الدارسين خلال العقود الأخيرة على مستوى الدراسة والتحقيق.[14]

تجردت هذه الكتب ، كما يتضح من محتويات ما هو معروف منها ، لمقاومة التطورات اللغوية المستجدة ، والمساهمة مع بقية المجهودات اللغوية في وضع الخط الأحمر الفاصل بين لغة فصحى يراد لها الانضباط والثبات ، وعاميات ما فتئت تتشكل وتتطور وتتداخل .ولم يدخر اللغويون وسعا في استنكار العاميات ووصفها بأرذل النعوت ، فمن كونها كلاما جلفا[15] مرذولا[16] أومبتذلا[17] ذليلا إلى اعتبارها منكرا بشعا[18] وبلغ الامر بالبعض[19] إلى حد الإعتقاد بأن في العامية من العبارات ما يعرض مستعملها للكفر .

12- حاول عيسى اسكندر المعلوف منذ الثلاثينات من هذا القرن احصاء كتب لحن العوام ، المطبوعة منها والمفقودة والمخطوطة انظر : مجلة مجمع اللغة العربية العدد الأول: اكتوبر 1934 ، صفحات 350- 368 وكذلك العدد الثالث : اكتوبر 1936 صفحات 349 -371 كما قدم الدكتور رمضان عبد التواب لوائح بحوالي ,52 عنوانا في دراسته : لحن العامة والتطور اللغوي : دار المعارف القاهرة 1967 ، كما تقدم لائحةعبد العزيز مطر عناوين 34 كتابا الفت إلى حدودالقرن السادس الهجري ، انظر كتابه : لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : صفحات 70- 94.

13- حسن حسني عبد الوهاب :الجماعة في إزالة الرطانة : بحث في لغة التخاطب في الاندلس وتونس لبعض علماء القرن التاسع الهجري ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية 1953.

14- اذكر منها بالخصوص اعمال رمضان عبد التواب وعبد العزيز مطر ،ومؤخرا أجرى خوصي بيريث لاثرو دراسة قيمة لكتاب ابن هشام اللخمي ، المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان ، الذي اخرجه في تحقيق جديد ضمن منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، المصادر الاندلسية ، ص 6 ، مدريد 1990.

15- ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1978 ، ج1 ص 121.

16- ابن الجوزي ، تقويم اللسان : تحقيق عبد العزيز مطر ، دار المعارف ، الطبعة الثانية 1983 ، ص 55.

17- الشاطبي ، الافادات والانشادات ، تحقيق محمد ابو الاجفان ، مؤسسة الرسالة بيروت 1983 ، ص 157.

18- ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص66.

19- كتاب جمعت فيه كلمات تجري على السنة العامة توجب كفر قائلها : مخطوط المكتبة الوطنية ، باريس 812 (ضمن مجموع) ورقة 39 انظر كذلك محتويات كتاب ابو علي السكوني الاشبيلي : لحن العوام فيما يتعلق بلحن الكلام : تحقيق وتقديم سعد غراب: حوليات الجامعة التونسية : العدد 12 السنة 1975 : صفحات 109 - 254.

لم يقتصر الامر على ذلك ، بل تجاوزه على غرار مواقف بقية أهل القلم إلى القذف والتحامل على العامة ، واصفين إياهم ب" الرعاع والهمج "[20] وب " الدهماء والسقاط "[21] و"البطالين الأميين"[22] وغير ذلك من نعوت الاحتقار ، متهمين إياهم بأفساد اللغة العربية ومعتبرين مايختلفون فيه مع الفصحى خطأ ولحنا سواء كان ذلك على مستوى النطق أو الحركة أو البناء ، وغير ذلك من أوجه الاختلاف .

مع ذلك ، فمن الانصاف التذكير بأن ثمة فعاليات في الفكر العربي الإسلامي امتنعت عن التحامل وأقرت بالتطور اللغوي ، ونظرت إلى كل من الفصحى والعامية باعتبارهما مجالا للمعرفة أكثر مما هما ميدانا للسجال . ففي المشرق ، لم يتردد المقدسي في إبراز أهمية التعرف على الاختلافات اللغوية الاقليمية والاستيناس بتنوع الالفاظ والمصطلحات قصد توظيفها عند التجرد للتأليف[23] كما دعى إلى ضرورة التدقيق في اختلاف المفاهيم وحدود معاني الالفاظ المستعملة بين العامة والخاصة[24] وأوصى بالتزام لغة مفهومة " ليقرب الوصف إلى الإفهام ويقف عليه الخاص والعام"[25] وآخذ على من سبقه من المؤلفين الاهتمام ب" ماليس للعوام فيه فائدة "[26] وفي الأندلس لم يجد ابن حزم أي حرج في الإقرار بأن "من تدبر العبرانية والسرانية أيقن أن اختلافها إنما هو من .. تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم"[27] ومع إبرازه لأهمية الأصول العربية للعامية الاندلسية، كشف عن بعض مظاهر تميزها وابتعادها عن أصولها" كلغة أخرى ولافرق"[28] وإقرارا منه بأهمية العامية، اتخذ من ألفاظها مدخلا لكتابه في المنطق، وهي حسب الضبي[29] "طريقة لم يسلكها قبله أحد". وعلى غرار مواقف المقدسي السالف الذكر،تهجم على من

---

20 – ابن جني : سر صناعة الاعراب : تحقيق حسن هنداوي ، دار القلم دمشق 1985 ، ص 5.

21 – الزبيدي :المصدر السابق ، ص 36..

22 – ابن المواعيني : ريحان الالباب وريعان الشباب ، مخطوط المكتبة الحسنية الرباط: رقم 2647 ، ص 130.

23 – المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، بريل ، ليدن الطبعة الثانية 1967 ، ص 30-32.

24 – نفسه ، ص 37.

25 – نفسه ، ص 9.

26 – نفسه ، ص 4.

27 – ابن حزم : الاحكام في اصول الاحكام، تقديم احسان عباس ، دار الآفاق الجديدة بيروت 1983، م1 ج1، ص 32.

28 – نفس المصدر والصفحة .

29 – بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس ، تحقيق كوديرا / ريبيرا ، مدريد 1884 ص 403 – 404.

سبقه من المترجمين لأنهم عمدوا إلى" تعقيد الترجمة في إيرادها بألفاظ غير عامية"[30]مفسرا موقفهم ذلك والسبب في" إغماض الألفاظ وتوعيرها وتخشين المسلك نحوها، الشح بالعلم والضن به".[31]

إن في هذه النصوص ما يلمس بعضا من جوهر المسألة اللغوية في الحضارة العربية الإسلامية الوسيطة . فمحاربة اللحن ، والتحامل على العامية ، والتصدي للقول بالتطور اللغوي ، لم يكن كما ذهب معظم الدارسين لأسباب مرتبطة بقراءة النص القرآني فقط ، ولكن بالخصوص لاقصاء العامة عن حلبة الثقافة[32] والحفاظ على تحكم وسيطرة النخبة المثقفة من أهل القلم . مع ذلك فلا مناص من الإقرار بمساهمة كتب لحن العوام إلى جانب بقية المجهودات اللغوية في صيانة مكانة اللغة العربية الفصحى كلغة عالمة تسمو عن الاختلافات المحلية والاقليمية ، وتساهم في ترسيخ الوحدة الثقافية والحضارية .

من جهة أخرى ، برهنت هذه الكتب عن قصورها ، وحدود فعاليتها عن مقاومة التأثيرات العامية . ولعل في النصوص السالفة ما يؤكد أن التطورات اللغوية كانت أقوى من أن تتمكن هذه الكتب من متابعتها والتصدي لنتائجها ، مما دفع بها إلى التزام منهج انتقائي . ذكر ابن السيد البطليوسي[33] في سياق حديثه عن أخطاء الخواص والعوام بخصوص حرف الضاد أن غرضه لم يكن "حصر هذا النوع كله واستيعابه ، فقصد .. منه إلى المستعمل المشهور ، وأضرب .. عن كثير من الحوشي عند الجمهور " واعترف غيره[34] بالعجز عن الاستيعاب ، والاقتصار على " ما يتوقع الغلط من الخاصة فيه ". ولا غرو فالكلام العامي بلغ من التأثير أن اخترق مختلف الأوساط وجميع "الناس على اختلاف طبقاتهم "[35] ولم يستثن في ذلك أهل القلم ، فقد عاين ابن الجوزي[36] " المتسبين

30 - ابن حزم :الرسائل : تحقيق احسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ، بيروت 1980 ، ج 4 ، ص 100.

31- نفس المصدر والصفحة .

32 - فغالبا ما حذر اهل القلم من تعليم العامة وتثقيفهم، ولقد ذكر ابو بكر الطرطوشي ان "تفقه الرعاع فساد الدنيا ، وتفقه السفلة فساد الدين" كتاب الحوادث والبدع ، تحقيق محمد الطالبي ، تونس 1959 ، ص 72 ، لمزيد من التفصيل انظر: احمد الطاهري ، المرجع السابق ، صفحات 173- 176 واعتقد بأن هذه المسألة بحاجة إلى بحث مستقل .

33 - الفرق بين الحروف الخمسة : تحقيق علي زوين، مطبعة العافي ، بغداد 1976 ، ص 104.

34 - الزبيدي ، المصدر السابق ، ص36.

35 - ابن مكي الصقلي ،المصدر السابق ، ص46.

36 - المصدر السابق ، ص 55.

إلى العلم يتكلمون بكلام العوام المرذول جريا منهم على العادة وبعدا عن علم العربية "، على حد تعبيره . لم يقتصر تأثير اللفظ العامي في صفوف هذه الفئة على مستوى لغة التخاطب ، والحديث في المجالس والمناظرات الشفوية ، بل تجاوزه إلى مستوى الكتابة والنظم ،" حتى ضمنه الشعراء أشعارهم، واستعمله جلة الكتاب وعلية الخدمة في رسائلهم وتلاقوا به في محافلهم "[37] وفي هذا مايفسر توجه بعض المصنفين[38] الى التأليف في أوهام الخواص ولحنهم ، وتخصيص الأبواب والفصول من كتبهم لهذا الغرض.[39]

بلغت المسألة اللغوية من التشابك والتداخل أن اختلط الأمر على المؤلفين في هذا الفن " فمنهم من قصر ، ومنهم من رد ما لايصلح رده "[40] وأصبح واضحا أن "كثيرا من الناس يخطئون وهم يحسبون أنهم مصيبون ، وكثيرمن العامة يصيبون وهمْ لا يشعرون "[41] ما كان على بعض مؤلفي كتب لحن العوام أمام هول التطورات اللغوية إلا أن يضطروا إلى التزام الإنصاف ، ومراجعة الأحكام الشائعة ، والاقرار على الاقل ب" تساوي الناس في الخطأ واللحن "[42] ليس من مجال للشك اذا في عجز كتب لحن العوام عن إحكام وضع الخط الاحمر الفاصل بين الفصحى والعامية.

وعلى عكس ماهو شائع ، ساهمت العاميات بشكل فعال في إثراء العربية الفصحى التي تمكنت خلال القرون الخمس الهجرية الاولى على الاقل من احتواء هذه الروافد وإدماجها في سياق ما تقتضيه قواعدها. وبالمقابل ، تزايد وقع اللسان العربي على العوام في مختلف المناطق ، رغم التعدد الاثني، فهجرت جزءا هاما من ألسنتها الأصلية[43] وانخرطت مجتمعة في تشكيل لغة عامية

37 - الزبيدي ، المصدر السابق ، ص36.

38 - اذكر منهم على سبيل المثال ، القاسم بن علي الحريري صاحب درة الغواص في أوهام الخواص ، وهناك عدة رسائل تتضمن مآخذ في اللحن والغلط على مثقفين وشعراء ، انظر عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق .

39 - يتضمن كتاب تثقيف اللسان لابن مكي الصقلي بابا فيما خالفت فيه الخاصة العامة وجميعهم على غلط، وبابا فيما العامة فيه على صواب والخاصة على خطأ و بابا اخر فيما تنكره الخاصة على العامة وليس بمنكر.

40 - ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص 55.

41 - ابن مكي الصقلي ، المصدر السابق ، ص 43.

42 - نفس المصدر والصفحة .

43 - وهو ما عبر عنه ابن خلدون بوضوح تام اذ قال :" وهجر الامم لغاتهم وألسنتهم في جميع امصارهم ومدنهم وصارت الالسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة" المقدمة : تحقيق علي عبد الواحد وافي القاهرة 1959: ج 3 ، 889 وتقدم الاندلس بهذا الخصوص حقلا نموذجيا للتاكد من صحة هذا المنحى ، وليس أدل على ذلك =

للتخاطب اتخذت من العربية منهلها الأساسي[44] وكثيرة هي الألفاظ والمصطلحات العامية الأصل استعلمت في كتابات السلف وما زالت تستعمل على أنها فصيحة ، فعلى سبيل المثال ، ذكر ابن الجوزي[45] الأصل العامي للقول " دخل في غمار الناس" وهي عبارة شائعة في المصادر التاريخية والدراسات الحديثة . وبالمثل ف " المصر عند العوام كل بلد جليل مثل الري"[46] وهو نفس المفهوم الذي احتفظ به في كتابات السلف والخلف على السواء. ولقد كان ابو هلال العسكري أكثر وضوحا في ذكره " قول العوام شيء أزلي أي قديم ويصفون الله تعالى بالأزلية ، وكل ذلك خطأ لا أصل له في العربية "[47] ومعلوم مدى شيوع هذا المصطلح في الكتابات القديمة والمعاصرة، بالخصوص الكلامية والفلسفية منها. ينطق نفس الشيء على " الريحان ، والريحان في الحقيقة هو كل ما فيه رائحة عطرية من الأشجار والنبات إلا أن العامة غلبوا هذا اللفظ وجعلوه علما في هذا النوع من الشجر الذي هو الآس ".[48]

ويتجلى بوضوح تام الدور الفعال الذي لعبه العامة في إثراء اللغة العربية الفصحي عند الإطلاع على كتابات السلف في مجالات الطب والصيدلة ، والفلاحة والنبات ، وما يرتبط بذلك من مستحضرات وآلات ومواد وتقنيات ومنتوجات وغيرها . فلقد تمكنت العامة بفضل موقعها الاجتماعي وبشكل طبيعي من مسايرة ركب التقدم الهائل الذي تم في إطار الحضارة العربية الإسلامية إلى حدود القرن الخامس الهجري ، وبالخصوص خلال القرنين الرابع والخامس ، وذلك على مستوى ايجاد المصطلحات التقنية ، لمختلف المبتكرات المستجدة . في حين عمد المصنفون في هذه المجالات دون أدنى حرج إلى نقلها من المستوى الشفوي العامي الى مستوى النص المكتوب . ويقدم

= من قول البرو القرطبي :" ان اخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب اهل الدين والفلاسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقضوها ، وانما لكي يكتسبوا من ذلك اسلوبا عربيا جميلا صحيحا ...يا للحسرة ، ان الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم الا لغة العرب وآدابها ..." انخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي : ترجمة حسين مؤنس الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية : القاهرة 1955 ص 485.

44 - لمزيد من التفصيل ، انظر ، احمد الطاهري : المرجع السابق ، ص 172- 173 وتحتاج هذه المسألة لمزيد من التعميق بالدراسة والبحث في مراحل تاريخية أخرى وبمناطق متباينة من دار الاسلام .

45 - المصدر السابق ، 103.

46 - المقدسي ،المصدر السابق ص 47.

47 - ابن الجوزيّ : المصدر السابق ، ص 78.

48 - الغساني ، حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار: تحقيق محمد العربي الخطابي ، دار الغرب الاسلامي بيروت 1985، ص 9.

النباتي الأندلسي المجهول [49] أمثلة عن طرق ميلاد بعض المصطلحات . في حين ، أشار غيره إلى إسهامات عامية متعددة في القاموس الطبي ، أذكر منها على سبيل المثال " داء الشوكة "[50] و"الحصبة " و"الجدري "[51] وغيرها . وتعج كتب الفلاحة بأسماء الآلات[52] والمستحضرات[53] وغيرها. وهي نفس الظاهرة التي عاينها النحوي الاندلسي الشهير ابن سيدة [54] إذ قال في نص مقتضب بالغ الدلالة:"هذا مانشاهد الآن من اختراعات الصناع لآلات صناعتهم من الأسماء ". يبدو أن الانهيار الحضاري والانغلاق الثقافي التدريجي خلال القرون اللاحقة ساهم في شل جزء هام من الانتاج التراثي ، ومعه شلت طاقات من اللسان العربي . في حين تمكنت الثورة العلمية الغربية خلال العصر الحديث من اكتساح العديد من المجالات ، دافعة باهتمامات اللغويين العرب باسم تخصص لا يتلاءم مع ثراء وتنوع تراثنا إلى الانزواء في حدود جد ضيقة .

نخلص إلى الاقرار بأهمية العديد من المصنفات التي من شأنها تغطية قصور كتب لحن العوام ، بل وتوفير مادة غنية ومتنوعة كفيلة بتعميق البحث في لغة التخاطب العامية بالغرب الإسلامي، والكشف عن مواطن احتكاكها وتفاعلها مع الفصحى والاعجميات المتعايشة معها. ففضلا عما تقدمه المؤلفات اللغوية[55] والأدبية[56] وكتب الأمثال العامية[57] والاشارات

---

49 - المصدر السابق ، 306.

50 - عبد الملك ابن زهر : التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق ميشيل الخوري ، دمشق 1983 ، ص 387.

51 - نفس المصدر ، ص 433.

52 - انظر ابن حجاج ، كتاب الفلاحة ، ضمن مجموع :مخطوط المكتبة العامة الرباط ، رقم 1410 د ، ورقة 94- 95 وفي أماكن متعددة.

53 - انظر مستحضرات : مري العامة ، المري البقيع ، مري الحوت ، مري المسطار ، في نفس المصدر ، ورقات 107-111 .

54 - المخصص ، تحقيق لجنة التراث العربي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت بدون تاريخ ، ص 5.

55 - انظر على سبيل المثال ، هشام بن أحمد الوقشي ، المنتخب من غريب كلام العرب مخطوط المكتبة العامة الرباط ، رقم 336 د ، ورقة 145.

56 - انظر :المقري التلمساني ، نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر بيروت1986 ، م1 ، 125 ، 149 ، 154 .

57 - مثل كتاب امثال العامة لعبد الله احمد بن محمد الزجالي القرطبي المنشور بتحقيق محمد بن شريفة ، ومن المفيد الاشارة الى تخصيص كثيرمن المؤلفات اللغوية فصولا كاملة لهذا الباب ، فالحديقة الخامسة من كتاب " حدائق الازاهر لابن عاصم الاندلسي : تحقيق عفيف عبد الرحمن ، دار المسيرة ، بيروت 1987 ، صفحات 297 - 364 ، خصصت لامثال العامة وحكمها .

المتناثرة في كتب التراجم[58] والطبقات[59] والأنساب[60] والمعلومات القيمة التي تحتويها بعض مصنفات التاريخ[61] والجغرافيا[62] تطالعنا كتب الطب والفلاحة والنبات ، كما يتضح مما سبق ، بمادة ثرية وغير منتظرة . بل وحتى كتب الفقه[63] والكلام[64] لاتخلو من أهمية . المطلوب إذا إجراء قرارات واسعة ومتأنية في مختلف المصادر التراثية المتعلقة بالغرب الاسلامي ، لجمع الالفاظ العامية قصد استكمال الجانب المبتور من كتب لحن العوام.

من الطبيعي أن تغفل كتب لحن العوام كل هذه المستويات ، فالهاجس الكامن وراء التأليف في هذا الباب بعيد كل البعد عن الاهتمام بالعامية كلغة شعبية للتخاطب ، بالكشف عن خصائصها والبحث عن جذورها وتمايزها ، فضلا عن تفاعلها مع العربية الفصحى وغيرها من اللغات واللهجات المتعايشة معها . لخص الزبيدي[65] دوافع وأسباب تحاشي تقديم مثل هذه المعلومات بقوله : " ولعل طاعنا يطعن في كتابنا هذا بما ذكرناه من الكلام السوقي ، واللفظ المستعمل العامي ". مع ذلك ، فبقدرما يكشف هذا النص عن حدود قيمة هذه المصادر بالنسبة للباحث في علم الاجتماع اللغوي ، ينبه إلى ماتحتويه من مؤشرات فائقة الأهمية . والملاحظ أن هذه المصادر اضطرت بحكم طبيعة مهمتها إلى إثبات العديد من الألفاظ العامية والتدقيق في حركاتها ونطقها ومواقع اختلافها مع الفصحى ومدى ابتعادها عن الأبنية العربية،

---

58 – انظر ابن عبد الملك المراكشي ، الذيل والتكملة ، س 1 ق 1 تحقيق بنشريفة : 144– 145 و س 1 ق 2 ، 477 وكذلك ابن بسام الذخيرة ، المصدر السابق ، ق 1 م 1 ، ص 243.

59 – انظر ابن فرحون ، المصدر السابق : ج 1 ، ص 332.

60 – القلقشندي ، نهاية الارب في معرفة انساب العرب ، دار الكتب المصرية ، بيروت 1984 ، ص 115.

61 – انظر ، تاريخ الاندلس لابن الكرد بوس ووصفه لابن الشباط ، تحقيق احمد مختار العبادي ، معهد الدراسات الاسلامية بمدريد 1971 ، ص 165.

62 – انظر على سبيل المثال ، ياقوت الحموي، كتاب المشترك وضعا والمفترق صقعا، نشر وستنفلد جامعة كوتنغن 1846 ،ص 5.

63 – انظر ، ابن رشد الفتاوي ، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1987 ، السفر 3 ، 1320 وكذلك الونشريسي ، المعيار المعرب والجامع المغرب،نشر وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، 1981 ، ج 4 ، ص 154.

64 – ابن حزم ،الفصل في الملل والاهواء والنحل ، تحقيق محمد ابراهيم نصر / عبد الرحمن عميرة ، دار الجيل ،بيروت 1985 ، ج 5 ، ص 77.

65 – المصدر السابق ، ص 83.

وعمدت في كثير من الأحيان إلى تصحيح حركات بعض الالفاظ الأعجمية الأصل حتى تنسجم مع القواعد اللغوية.[66]

ولعل في الإقتناع بقيمة المواد الغير الفصيحة بالنسبة للبحث اللغوي المعاصر وللمهتمين بالتاريخ الاجتماعي ، ما يدعو الى شحذ الهمم للقيام بهذه المهمة المزدوجة المتمثلة ، في جمع وإعادة تركيب الألفاظ العامية المتناثرة في المصادر المختلفة ، والبحث عن المفقود من كتب لحن العوام ونشر وتحقيق المخطوط منها . ويبدو أنه آن الآوان للتخلي عن منطق الخطأ والصواب ، والانكباب على تحليل ما يدعى خطأ ، والبحث في أصوله واشتقاقاته ومتابعة تطوراته وإجراء المقارنات بينه وبين أمثاله في مناطق اخرى بكلا جناحي دار الاسلام.

---

66 - انظر نفسه : صفحات ، 15 و 23 انظر كذلك : نباتي اندلسي مجهول ، المصدر السابق : 222 وفي اماكن متعددة ، ومن المعروف ان كثيرا من الالفاظ الاعجمية قد اندمجت في لغة العرب وتكيفت مع ابنتيها . وبهذا الصدد برهن الجواليقي على سطحية الرأي القائل بنقاوة اصول العربية ، اعتمادا على فهم مبسط لقوله تعالى "انا جعلناه قرآنا عربيا " واشاد بتفوق علم وحجج القائلين بتضمن القرآن ل "احرف كثيرة ...من غير لسان العرب" ، وبدل الانخراط في جدال عقيم حول الشكليات صاغ موقفا توفيقيا يقرب "ان الحروف بغير لسان العرب في الاصل ... ثم لفظت به العرب بألسنتها فعربته، فصار عربيا بتعريبها اياه فهي عربية في هذه الحال اعجمية الاصل "، المعرب في الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، تحقيق ابوالاشبال احمد محمد شاكر ، دار الكتب المصرية القاهرة 1361 هـ ، ص 4 - 5.

لائحة المصادر

1 - ابن بسام :الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : تحقيق احسان عباس:الدار العربية للكتاب : ليبيا تونس : 1981.

2 - ابن جني : سر صناعة الاعراب : تحقيق حسن هنداوي : دار القلم : دمشق 1985.

3 - ابن الجوزي : تقويم اللسان : تحقيق عبد الغزيز مطر : دار المعارف : الطبعة الثانية 1983.

4 - ابن حجاج : كتاب الفلاحة : مخطوط المكتبة العامة : الرباط : رقم 1410 (ضمن مجموع).

5 - ابن حزم :

أ - الرسائل : تحقيق احسان عباس : المؤسسة العربية للدراسات والنشر : الطبعة الأولى بيروت : 1980

ب - الإحكام في أصول الأحكام : تقديم احسان عباس : دار الافاق الجديدة : بيروت 1983.

ج - الفصل في الملل والاهواء والنحل : تحقيق محمد ابراهيم نصر/ عبد الرحمن عميرة : دار الجيل : بيروت 1985.

6 - ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة : تحقيق محمد عبد الله عنان : مكتبة الخانجي : القاهرة 1975.

7 - ابن خلدون : المقدمة : تحقيق علي عبد الواحد وافي : القاهرة 1957- 59.

8 - ابن خير : الفهرسة : تحقيق فرانسيسكو كوديرا : مؤسسة الخانجي : الطبعة الثانية : القاهرة 1963.

9 - ابن رشد : الفتاوي : تحقيق المختار بن الطاهر التليلي : دار الغرب الاسلامي : بيروت 1987.

10 - ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب : تحقيق شوقي ضيف : دار المعارف : القاهرة الطبعة الثالثة.

11 - ابن سيدة : المخصص : تحقيق لجنة التراث العربي : منشورات دار الافاق الجديدة بيروت : بدون تاريخ.

12- ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة السفر الاول القسم الاول : تحقيق بنشريفة دار الثقافة بيروت : وكذلك السفر الاول : القسم الثاني.
13 - ابن عاصم : حدائق الازاهر : تحقيق عفيف عبد الرحمن : دار المسيرة : بيروت 1987.
14 - ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب : تحقيق محمد الاحمدي : دار التراث : القاهرة 1976.
15 - ابن قتيبة : عيون الاخبار : المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر المجلد الاول القاهرة :1964.
16 - ابن الكردبوس : تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط : تحقيق احمد مختار العبادي : معهد الدراسات الاسلامية بمدريد: 1971.
17 - ابن مكي الصقلي : تثقيف اللسان وتلقيح الجنان : تحقيق عبد العزيز مطر:دار المعارف : القاهرة: 1981
18 - ابن المواعيني : ريحان الالباب وريعان الشباب : مخطوط المكتبة الحسنية : الرباط : رقم .2647
19 - ابن النديم : الفهرست : دار المعرفة بيروت : بدون تاريخ.
20 - ابن هشام اللخمي : المدخل الى تقويم اللسان وتعليم البيان : دراسة وتحقيق خوصي بيريث لاثارو : المجلس الاعلى للابحاث العلمية : مدريد 1990.
21 - البطليوسي (ابن السيد) : الفرق بين الحروف الخمسة : تحقيق علي زوين - مطبعة العافي : بغداد 1976.
22 - الجواليقي : المعرب في الكلام الاعجمي على حروف المعجم : تحقيق ابو الاشبال احمد محمد شاكر : دار الكتب المصرية : القاهرة : 1361 هـ.
23 - الزبيدي : لحن العامة : تحقيق عبد العزيز مطر: دارالمعارف : القاهرة 1981.
24 - الشاطبي : الافادات والانشادات : تحقيق محمد ابو الاجفان : مؤسسة الرسالة : بيروت 1983.
25 - الضبي : بغية الملتمس : دار الكتاب العربي : القاهرة 1967.
26 - الطرطوشي : كتاب الحوادث والبدع : تحقيق محمد الطالبي : تونس 1959.
27 - عبد الملك بن زهر : التيسير في المداواة والتدبير : تحقيق ميشيل الخوري : دمشق : 1983.
28 - الغساني : حديقة الازهار في ماهية العشب والعقار : تحقيق محمد العربي الخطابي: دار الغرب الاسلامي : بيروت 1985.

29 - القفطي : انباه الرواة على انباء النحاة : تحقيق ابو الفضل ابراهيم : دار الفكر العربي القاهرة 1986.

30 - القلقشندي : نهاية الارب في معرفة انساب العرب : دار الكتب المصرية : بيروت 1984.

31 - الكسائي : ماتلحن فيه العامة : تحقيق رمضان عبد التواب : مكتبة الخانجي : القاهرة 1982.

32 - مجهول : الجمانة في إزالة الرطانة : تحقيق حسن حسني عبد الوهاب : مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية : 1953.

33 - مجهول : كتاب جمعت فيه كلمات تجري على السنة العامة توجب كفر قائلها : مخطوط المكتبة الوطنية بباريس : رقم 812 (ضمن مجموع) ورقة 39.

34 - المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم : بريل : ليدن : الطبعة الثانية : 1967.

35 - المقري : نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب : تحقيق احسان عباس : بيروت 1968.

36 - الوقشي(هشام بن احمد) : المنتخب من غريب كلام العرب : مخطوط المكتبة العامة الرباط: رقم 336 د.

37 - الونشريسي : المعيار المغرب : نشر وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية : 1981.

38 - ياقوت الحموي : كتاب المشترك وضعا والمفترق صقعا : نشر وستنفلد : جوتنغن : 1846.

39 - احمد الطاهري : عامة قرطبة في عصر الخلافة : دار عكاظ : الرباط : 1989.

40 - انخل جونثالث بلنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي : ترجمة حسين مونس: النهضة المصرية القاهرة 1955.

41 - رمضان عبد التواب : لحن العامة والتطور اللغوي : " دار المعارف : القاهرة 1967.

42 - عبد العزيز مطر : لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : دار المعارف : الطبعة الثانية : القاهرة 1981.

43 - عيسى اسكندر المعلوف : مجلة مجمع اللغة العربية : العدد الاول اكتوبر 1934 والعدد الثالث: اكتوبر 1936

قراءة توثيقية في كتاب نفح الطيب

نصوص التاريخ الإقتصادي الإجتماعي والحضري

من الملاحظ أن التصورات المتداولة عن معظم المصادر التاريخية قليلا ما تتجاوز مستوى التعميم والانطباع والتجزيئ . قليلة هي المصنفات التي خضعت للدرس والتقويم ، من خلال تفكيك مادتها العلمية ، وتحليل مكوناتها وتوثيق مصادرها المعرفية . وعلى الرغم من الاستعمال المكثف لكتاب نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب ، أحد اشهر المصادر في تاريخ الاندلس وحضارتها ، من طرف المهتمين بالدراسات الاندلسية ، أدباء ومؤرخين ، عربا ومستشرقين[1] منذ القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين ، لم يخضع بعد لكل ما يستحقه من الفحص والدرس والتقويم.

ولعل في حصر المادة المتعلقة بجوانب التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والحضري التي يتضمنها القسم الاول الخاص ب" أخبار الاندلس "[2] والكشف عن القيمة المعرفية والتوثيقية للمصادر المستعملة ، وتتبع تعامل ابي العباس أحمد المقري معها نقلا واقتباسا ، نقدا وتلخيصا ، مايساهم في ابراز مكانته المتميزة عن غيره من المؤرخين ، وتوضيح قيمة ونواقص كتاب نفح الطيب باعتباره مصدراتاريخيا متميزا.

ومن خلال تحليل أولي للنصوص المتعلقةبالتمدين والعمران الحضري تتجلى رغبة المقري في تمكين قراءه من ملامسة التطورات الهائلة التي تحققت بهذا الخصوص في الاندلس . ففضلا عن تخصيص باب في ذكر قرطبة حاضرة الخلافة الاموية ، والمدينتين الملكيتين الزهراء والزاهرة ، تزخربقية الكتاب بمعلومات لاتقل أهمية تتعلق بالعديد من الحواضر والقواعد الاندلسية الاخرى.

---

1 - فمنذ اقدام جيمس كافناخ على نشر بعض المقتطفات من النفح سنة 1815 ، وترجمة بعضها من طرف جون شكسبير سنة 1816 ، توالي اهتمام عدد من المستشرقين بهذا الكتاب ، باستخراج وتحليل وترجمة نصوصه التاريخية والادبية والشعرية وتوجت تلك الجهود بصدور القسم الاول من الكتاب في ليدن ابتداء من سنة 1855 واصبح منذ ذلك الحين مصدرا اساسيا لما كتبه الاوروبيون عن تاريخ وحضارة الاندلس .

2 - ويتضمن هذا القسم ثمانية ابواب موزعة على اربعة اجزاء من مجموع ثمانية اجزاء التي تتضمنها الطبعة المحققة من طرف احسان عباس .

لاتقتصر النصوص المقتبسة على تعداد المدن [3] وابراز وظائفها [4] والكشف عن اصول نشأة بعضها [5] والتمييز بين احجامها ومستوياتها [6] بل كثيرا ماتنحو الى تقديم تفاصيل هامة عن المرافق الحضرية المختلفة :اقتصادية كالحوانيت والدروب الحرفية [7] والاسواق [8] ومصاري الكراء [9] والفنادق [10] والجسور [11] والمسافات بين المدن [12] أو اجتماعية كالحمامات [13] ودور العجزة والفقراء [14] والملاهي [15] وغيرها ،أو عسكرية دفاعية كالاسوار [16] والابواب [17] والابراج والحصون والخنادق [18] فضلا عن المعلومات المتعلقة بالقصور والمنتزهات [19] والمنى وغيرها . كما ساهم النفح في الكشف عن مواقع واسماء العديد من القرى [20] والدور [21] والارباض [22] ولاتخفى قيمة هذا الصنف من المادة العلمية في استكمال تصوراتنا عن ماض مازال الغموض يكتنف عديدا من جوانبه .

ويزخر النفح بمعلومات اقتصادية جد متنوعة ، ففضلا عما يتعلق بالفلاحة من أشكال تملك

3 - انظر المقري ، نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر بيروت 1968ج1 : 226.
4 - نفسه ، ج1 ، ص 153 ، ج1 ، ص 459.
5 - نفسه ، ج1 ، ص134 ، 135 ، 460 ، 481.
6 - نفسه ، ج1 ، ص 165 ، 460.
7 - نفسه ، ج1 ، ص 558 ، 559 ، ج 2 ، ص 83.
8 - نفسه ، ج1 ، ص 458 ، 579 ، 636 ، ج 2 ، ص 340 ، ج 4 ، ص 294.
9 - نفسه ، ج1 ص 541.
10 - نفسه ، ج1 ، ص 163.
11 - نفسه ، ج1 ، ص 408 ، 409 ، 480.
12 - نفسه ، ج1 ، ص 456-457.
13 - نفسه ، ج1 ، ص 163 ، 533 ، 541.
14 - نفسه ، ج1 ، ص 555 ، 556.
15 - نفسه ، ج3 ، ص 217 - 263.
16 - نفسه ، ج1 ، 458 ، ج 2 ، ص 27.
17 - نفسه ، ج1 ، ص 465.
18 - نفسه ، ج1 ، ص 149 ، 162 ، 295.
19 - نفسه ، ج1 ، ص 475 ، ج 3 ، 242 ، ج 4 ، ص 192 ، 193.
20 - نفسه ، ج1 ، ص 534.
21 - نفسه ، ج 1 ، ص541.
22 - نفسه ، ص 205 ، 458 ، 465 ، 466.

الأرض[23] وأساليب سقيها واستغلالها[24] وضروب الغراسات والزراعات[25] وأجناس الفواكه ، لم يدخر المقري وسعا في جمع النقول المتعلقة بالمعادن والخامات المجلوبة من الافاق أو المستخرجة من الاندلس[26] وذكر المتاجر والاموال والصناعات المختلفة ، وما يتجهز به الرفاق من بضائع وطرائف . ولاتقل المعلومات بخصوص الاصناف الحرفية كالجيارين والجباسين[27] والحاكة[28] والفخارين والصيارف[29] وصيادي السمك[30] والفوالين[31] واللبانين[32] والرخامين[33] والصباغين[34] وغيرهم،اهمية.

وبالمثل ، يقدم النفح معلومات فائقة الاهمية بخصوص الانساب والعلاقات العشائرية ، والمكونات العرقية والطائفية والدينية[35] والاختلافات الفئوية والطبقية.وتتواتر الاشارات عن العوام وأهل المسكنة وفقراء الصناع والمتسولين ، بل وحتى عن البغايا والعاهرات[36] وبمتابعة القراءة في محتويات هذا الكتاب، نتمكن من ملامسة العديد من مظاهر الحياة الاجتماعية ، نخص منها بالذكر الامور اللغوية كاللحن ولغات التخاطب العامية[37] وبعض العوائد الاجتماعية المرتبطة بالاعياد والحفلات[38] واختلاف الازياء،بالاضافة لتفاصيل تهم الطرب والملاهي والمراقص وغير ذلك مما نفتقده في معظم المصنفات والحوليات التاريخية.

---

23 - نفسه ، ج 1 ، ص 194 ، 547 ، ج 3 ، ص 396.
24 - نفسه ، ج 3 ، ص 151 ، 453 - 454 ، 601.
25 - نفسه ، ج 1 ، ص 143 ، 148 ، ج 3 ، ص 217.
26 - نفسه ، ج 1 ، ص 148 ، 200 - 201 ، 140 ، 144.
27 - نفسه ، ج 4 ، ص 260.
28 - نفسه ، ج 1 ، ص 150.
29 - نفسه ، ج 1 ، ص 152.
30 - نفسه ، ج 3 ، ص 339.
31 - نفسه ، ج 3 ، ص 465.
32 - نفسه ، ج 1 ، ص 440.
33 - نفسه ، ج 1 ، ص 202.
34 - نفسه ، ج 4 ، ص 247.
35 - نفسه ، ج 1 ، ص 290 - 293 ، ج 3 ، ص 522 ، 525.
36 - نفسه ، ج 3 ، ص 509.
37 - نفسه ، ج 1 ، 144 - 154.
38 - نفسه ، ج 4 ، ص 63 ، 13 .

وباستقصاء أصول الاقتباسات والنقول المتعلقة بهذه المواضيع ،وتتبع وتوثيق مختلف الاشارات الواردة بخصوصها وان عرضا في المتن ، تتجلى أهمية ماحشده المقري من مصادر لتحقيق غرضه في ابراز فضل الاندلس على هذا المستوى . وعلى الرغم من شكوى المقري المتكررة بتخلف معظم محتويات مكتبته بالمغرب[39] فلقد تمكن من الاعتماد على مجموعة هامة من المصادر الاندلسية ، بالرجوع الى بعضها مباشرة، والى أخرى بواسطة مصادر من الدرجة الثانية وأحيانا بالتعويل على الذاكرة التي شحذها بقوة أيام كان بالمغرب " معتنيا بالفحص عن انباء الاندلس"[40] على حد تعبيره .

ومن مصادره بهذا الخصوص أحمد بن محمد الرازي المعروف بالتاريخي،الذي يعتبر " الرائد الاول لعلم الجغرافية بالاندلس "[41] فلقد ألف في " مسالك الاندلس ومراسيها وأمهات مدنها وأجنادها الستة "[42] كما صنف كتابا متخصصا " في صفة قرطبة وخططها ومنازل الاعيان بها"[43] وفضلا عما يثبته من نصوص هامة [44] واشارات مفيدة [45] لموضوع التمدن والنمو الحضري بالاندلس ، فبقية الاقتباسات تتعلق بجوانب تاريخية مرتبطة بفتح الاندلس وبعصر الولاة[46] وببعض التراجم[47] ولايخفي التجاءه في بعض الاحيان الى مصادر وسيطة كالمقتبس لابن حيان[48] والمغرب لابن سعيد[49] وغيرهما[50] ممن يعتمد على مصنفات الرازي . ويقتصر فيما عدا ذلك على

---

39 - يقول في مقدمة مصنفه متحدثا عن عوائق التاليف :" وثانيهما عدم تيسر الكتب المستعان بها على هذاالمرام لاني خلفتها بالمغرب " : نفس المصدر ج 1 ، ص 71 ، ويقول في مكان آخر :" وقد ألف فيها (يقصد المرية) ابو جعفر بن خاتمة تاريخا حافلا سماه ب "مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية في مجلد ضخم تركته من جملة كتبي بالمغرب " نفسه ج 1 ، ص 163.

40 - نفسه ، ج 1 ، ص 108.

41 - عبد العزيز سالم ،التاريخ والمؤرخون العرب ، دار الكتاب العربي ، الاسكندرية 1967 ، ص 201.

42 - المقري ،المصدر السابق . ج 3 ، ص 160 ، انظر كذلك الحميدي ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، 1966 ، ص 104.

43 - انظر النفح ج 3 ، ص 173 ، وكذلك الحميدي ، المصدر السابق ، ص 104.

44 - انظر النفح ، ج 1 ، ص 460 ، 480، 481.

45 - نفسه ، ج 1 ، 199 ، 204 ، 259 ، 560.

46 - انظر صفحات ، ج 1 ، ص 236 ، 248 ، 249 ، 259 ، 277 ، 280 ، 560 ، ج 3 ، ص 19.

47 - انظر صفحات ، ج 2 ، ص 149 ، ج 3 ، ص 6 - 14 - 143.

48 - انظر ،صفحات ، ج 1 ، ص 248 - 249.

49 - انظر نفسه ، ج 1 ، ص 560.

50 - انظر نفسه ، ج 3 ، ص 6.

اسناد نقوله – مع بعض الاستثناءات – للرازي[51] مع اغفال التدقيق في اسمه الكامل وعناوين المصادر المستعملة.

وعلى الرغم من الاقرار بعدم توفره على نسخة كتاب ابن خاتمة في "مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية "[52] لم يتردد المقري عن الاقتباس منه مرارا مع النص على عنوان ومصنف الكتاب[53] وذلك اعتمادا على الذاكرة فيما يبدو ، واستعانة بمصادر احتفظت على بعض النقول منه[54] في حين لم يوثق المعلومات الهامة والنادرة التي يقدمها بخصوص مدينة المرية ونشاطها البارز على صعيد الحرف الصناعية.[55]

وتزخر المكتبة الاندلسية بعديد من المصنفات في خطط وتاريخ المدن وأخبار الكور ، نخص منها بالذكر كتاب ابي محمد عبد الملك بن حبيب في "فضل مدينة قادس "[56] ومصنف مطرف بن عيسى الغساني في " اخبار كورة البيرة واهلها وبوائرهاواقاليمها وغير ذلك من منافعها "[57] وكتاب اسحاق بن مسلمة بن اسحاق القيني في " أخبارية وحصونها "[58] لم يتمكن النفح من استغلالها على الرغم من الاشارات المؤكدة على معرفة المقري ببعضها.

وبالتدقيق في النصوص المنقولة عن كتب المسالك والممالك والمعاجم الجغرافية ، يتجلى قصور المقري عن وضعها موضع استغلال مكثف . فعلى الرغم من اقراره بأولية وأهمية "كتاب

51 – ومعلوم ما قد يطرح ذلك من خلط ، خصوصا وان المقري يعتمد على غيره ممن عرف بهذا الاسم ، واعتقد بان الاحالات على الرازي الواردة في ج 2 ، ص 652 و 665 على سبيل المثال ليست لصاحبنا احمد بن محمد الرازي التاريخي .

52 – انظر النفح ، ج 1 ص 163 ، ورد اسم هذا المصنف كذلك في كتاب ، أزهار الرياض في أخبار عياض تحقيق مصطفى السقا / ابراهيم الابياري / عبد الحفيظ شلبي : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1939 ، ص 23 .

53 – انظر صفحات ج 2 ، ص 175 و ج 5 ص 360 .

54 – فهناك تشابه مع معلومات مماثلة واردة في الاحاطة لابن الخطيب والقطعة المنشورة من فرحة الانفس لابن غالب ، وغيرهما ، انظر محقق النفح هامش ج 1 ، ص 163.

55 – اكتفى بالقول ، :" وقال بعضهم " انظر ، ج 1 ، ص 163 .

56 – وصفه ابو عبد الله محمد بن ابي بكر الزهري بكونه " كتابا كبيرا " كتاب الجغرافية : تحقيق محمد حاج صادق ، المركز الاسلامي للطباعة الجيزة مصر بدون تاريخ : 90 .

57 – وصفه ابن بشكوال بكونه "حسن ممتع جدا" انظر الصلة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، 1966 ، القسم 2 ، ص 622.

58 – يذكر المقري هذا الكتاب في متن مصنفه ، انظر ج 3 ، ص 174 ، انظر كذلك الحميدي ، المصدر السابق ص 169 والضبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس ، دار الكتاب العربي ، 1967 ، ص 236.

المسالك والممالك لابي عبيد الله البكري "[59] تقتصر نقوله من هذا الكتاب على بضعة نصوص[60] ثانوية القيمة . ينطبق نفس الشيء – مع بعض الاستثناءات[61] في تعامله مع مسالك ابن فضل الله العمري[62] ونزهة المشتاق للادريسي ، وصورة الارض لابن حوقل ، الذي لاتخفى أهميته كشاهد عيان للنشاط الحضري والمديني بالاندلس وهو في أعلى مستويات تطوره[63] في حين تتعلق مجمل الاقتباسات من الروض المعطار باحداث تاريخية[64] وعلى غرار ما سلف ذكره ، ينص المقري على التجاءه في بعض الاحيان الى مصادر وسيطة.[65]

ويحتفظ نفح الطيب على مادة علمية هامة مستقاة من أحد أوثق وأدق المصنفات التاريخية ، ويتعلق الامر بكتاب " المقتبس في تاريخ الاندلس " لعمدة المؤرخين أبي مروان ابن حيان ، الذي ضاعت كما هو معلوم معظم أجزاءه[66] وفضلا عن المعلومات التي يقدمها بخصوص بناء المسجد الجامع[67] والقنطرة العظمى[68] وكنيسة شنت مرية[69] والتفاصيل العمرانية القيمة حول بناء مدينة الزهراء[70] يفصح عن نتائج العلميات الاحصائية الدقيقة التي طالت المساجد والحمامات[71] والسواري والابواب[72] ووسائل النقل[73] اضافة الى أسعار مواد البناء[74] واجور العمالين[75] وقيمة

---

59 – انظر النفح ، ج 3 ، ص 184.

60 – انظر صفحات ، ج 1 ، ص 126 ، 292 ، 459.

61 – انظر ج 1 ، ص 410 ، 541.

62 – انظر نفسه ، ج 1 ، ص 541.

63 – زار ابن حوقل الاندلس في خلافة عبد الرحمن الناصر ودخل قرطبة سنة 350 ودار حول سور ربضها المركزي ، "غير يوم قد ساعة" على حد تعبيره انظر ، صورة الارض بيروت 1979 ، ص 108 .

64 – انظر النفح ج 4 ، ص 354 ، 357 ، 360 ، 362 ، 368.

65 – انظر نفسه ، ج 1 ، ص 127 ، 136.

66 – باستثناء القطع الاربعة المنشورة.

67 – انظر النفح ، ج 1 ، ص 153 ، 546 – 547.

68 – نفسه ، ج 1 ، ص 153 ، 480.

69 – نفسه ، ج 1 ، ص 285.

70 – نفسه ، ج 1 ، ص 526 – 528.

71 – نفسه ، ج 1 ، ص 540.

72 – نفسه ، ج 1 ، ص 566.

73 – نفسه ، ج 1 ، ص 567 – 568.

74 – نفسه ، ج 1 ، ص 526.

75 – نفسه ، ج 1 ، ص 567 – 568.

النفقات[76] وهي معلومات قلما نصادفها في الحوليات ومختلف المصنفات التاريخية.

ويكشف ابن حيان في اكثر من مناسبة عن أصالة ودقة ووثوق مصادر معلوماته الاحصائية. فبخصوص تعمير الزهراء ، اعتمد فضلا عن بعض "عامة أهل الخدمة "[77] وبعض " الشيوخ المحصلين "[78] ممن اشتغل في بناءها ، على "مسلمة بن عبد الله العريف المهندس "[79] الذي عينه الخليفة عبد الرحمن الناصر " ناظرا في بنيانها "[80] وبالمثل فالمعلومات والأرقام بخصوص مبالغ الجباية والنفقات السلطانية في الدولة العامرية ، ذكرها اعتمادا على " ابي القاسم محمد بن مرشد أحد .. وجوه الكتاب المتمتعين بالنظر والمعرفة "[81] في هذه الدولة ، وممن طال به السن فلحقة ابن حيان .أما احصاء مقادير الاطعمة في الاهراء والمخازن العامرية ، فلقد ذكرها اعتمادا على "أبي محمد بن مروان آخر حذاق كتاب المحاسبة .. وممن لحق طرفا من تلك الدولة"[82] وتغطي نقول نفح الطيب عن ابن حيان جوانب مختلفة : اقتصادية[83] ودبلوماسية[84] وعسكرية[85] فضلا عن التراجم وبعض الشذرات التاريخية التي تهم الاندلس منذ زمن الفتح الى عصر الطوائف .

76- نفس المصدر والصفحة.

77 - نفسه ، ج 1 ، ص 568.

78 - ابن غالب ،فرحة الانفس في تاريخ الاندلس ، قطعة من الكتاب منشورة في مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الاول ، الجزء الاول ، القاهرة 1955 ، 300 -301.

79 - وذلك اعتمادا على ما قيده ابن دحون انظر النفح ، ج 1 ، ص 567.

80 - ابن غالب ، المصدر السابق ، ص 330.

81 - ابن الخطيب ، اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام : تحقيق بروفنسال ، رباط الفتح، 1934 ، ص 114- 115.

82- نفس المصدر والصفحة.

83 - انظر بخصوص التجارة ج 1 ، ص 412 - 413 وبخصوص استقدام مزروعات جديدة الى الاندلس ج 1 ، ص 467 - 468.

84 - يقدم النفح معلومات هامة عن سفارة صاحب القسطنطينية الى الناصر ج 1 ، ص 366 - 368 ، وعن سفارة يحيى الغزال الى بلاط الروم ج 2 ، ص 258 - 259 ، كما يتحدث عن سفارة اردون بن ادفونش ملك جليقية الى الحكم المستنصر ، انظر ج 1 ، ص 384 ، وعن سفارة ملك مصر لاحقا ، انظر ج 3 ،ص 143.

85 - انظر على سبيل المثال تفاصيل غزوة المنصور بن ابي عامر لشنت ياقوه وكنيستها ج1، ص 413 - 416.

بمقارنة نصوص ابن حيان المشتركة بين النفح ومصادر اخرى ، يتجلى تأرجح المقري بين الاقتباس الحرفي الامين[86] والتدخل بالحذف والتعديل والتغيير في بعض الاساليب والصيغ ، واسقاط فقرات باكملها[87] والتقديم والتأخير.

حقيقة أن المقري يوثق عددا هاما من هذه النقول بذكر ابن حيان مقرونا بكتابه المقتبس[88] بل وأحيانا بالإفصاح عن لجوءه الى التلخيص أو التزامه بالنقل الحرفي[89] لكنه في الغالب يكتفي بذكر ابن حيان دون اشارة للمصدر ، ومن المعلوم ان ابن حيان قد ألف كذلك تاريخه المعروف بالمتين الذي يقع حسب البعض " في نحو ستين مجلدة "[90] كما صنف في " اخبار الدولة العامرية "[91] وخص الاحداث الكائنة بقرطبة سنة 462 هـ بكتاب البطشة الكبرى[92] بصرف النظر عما نسب اليه من مؤلفات في التراجم والطبقات.[93]

كما يحتضن النفح نصوصا هامة من كتاب فرحة الانفس في تاريخ الاندلس للحافظ محمد بن ايوب بن غالب الاندلسي . يتناول قسم منها أنساب وأصول وأماكن استقرار بعض المجموعات والعشائر الاندلسية[94] فضلا عن ذكر بعض الخصائص الاجتماعية المميزة

---

86 - انظر قصة الجوهري التاجر مع المنصور ابن ابي عامر ، النفح ج 1 ، ص 412 - 413 المكررة حرفيا وبنصها الكامل في ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب لابن عذاري ، تحقيق بروفنسال / كولان ، بيروت 1980 ، ج 2 ، ص 291 - 292 ، يقول المقري في مستهلها :" ولكن رأينا اعادتها بلفظ المؤرخ لأنه اتم مساقا "

87 - قارن النص الوارد في النفح ج 4 ، 449 - 454 بنفس النص الوارد في ذخيرة ابن بسام ، تحقيق احسان عباس بيروت 1978 ، ق 3 ، م 179 - 190 ، ويتجلى التدخل بالحذف والتلخيص من خلال الترجمة التي خصها لابن حزم الواردة في ج 2 ، ص 77 - 78 ، قارن مع نصها الكامل الوارد في الذخيرة ، ق 1 م 1 ، 167 - 172.

88 - انظر النفح ج 1 ، 137 ، 248 ، 382 ، ج 2 ، 131 ، 254 ، 258 ، 330 ج 3 ، 27 ، 55 ، 61 ، 111 ، 122 و 181 ، 193 و 613 و ج 4 ، ص 289 ، 290 وكذلك ج 5 ، ص 15.

89 - قال في سياق نقله لقصة الجوهري" لكنا رأينا اعادتها بلفظ هذا المؤرخ يقصد (ابن حيان) لأنه أتم مساقا " انظر ج 1 ، ص 412 ، انظر كذلك قوله " انتهى ببعض الاختصار " ، ج 4 ص 452.

90 - انظر تذييل ابن سعيد على رسالة ابن حزم في فضل الاندلس المنقول في النفح ، ج 3 ص 181.

91 - انظر ، ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص 114 ، انظر كذلك النفح ، ج 1 ، ص 399.

92 - انظر ابن بسام ، المصدر السابق ، ق 1 م 2 ، ص 608.

93 - انظر تقديم محمود علي مكي لكتاب المقتبس ، لجنة احياء التراث الاسلامي ،القاهرة 1971 ، ص 67.

94 - انظر صفحات ، ج 1 ، ص 290 ، 291 ، 292 ، 293 ، 294 ، 295 ، 296 ، 298.

للاندلسيين[95] كما يقدم معلومات اقتصادية[96] وحضارية[97] قلما نصادفها في المصادر المتداولة. بصرف النظر عن جملة من الاحداث التاريخية[98] ولا تخفى قيمة كتاب فرحة الانفس من خلال طبيعته وبالخصوص من خلال اصالة مصادره.[99]

وتكشف النصوص القليلة المشتركة بين النفح والقطعة المتداولة من فرحة الانفس ، تدخل المقري باسقاط بعض التفاصيل ،واجراء تعديلات في بعض الجمل والكلمات دون الاخلال بمحتوى ،بل وبمعظم تفاصيل الاقتباس . ولاتخفى قيمة النفح كمصدر لمراجعة وتدقيق النص المحقق من الفرحة[100] في حين يصعب البت في مصدر الارتباك والاختلاف بخصوص بعض المعلومات الدقيقة المشتركة بين المصدرين.[101]

الا أن أهم الاقتباسات المرتبطة بجوانب التاريخ الاقتصادي والعمران الحضري،ا ستخرجت من أحد أنفس المصادر المفقودة في تاريخ الاندلس ، ويتعلق الامر بتاريخ ابن بشكوال[102] فبالاضافة

95- نفسه ج 3 ، ص 150 ، 151.

96- انظر تعرضه لصناعة وبر السمور بقرطبة ج 1 ، 197 ، عن هذه المسألة ولمزيد من التفاصيل انظر ، المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم : نشر دي خويه ليدن ، 1906 ، ص 241 وكذلك الاصطخري : المسالك والممالك : نشردي خويه ليدن 1927 ، ص 42.

97- انظر عن قنوات تصريف المياه وتوزيعها وقودها من المناطق البعيدة الى المراكز الحضرية ، ج 1، 202-203-564.

98- تتناول مراحل مختلفة من تاريخ الاندلس ، عصر عبد الرحمن الناصر ، انظر ، ج 3 ، 716 ، عصر الطوائف ج 3 ، 405 الهجرة الاندلسية الى العدوة : انظر ج 3 ، ص 152.

99- فهو يعتمد على احمد الرازي انظر ابن غالب المصدر السابق ، ص 282 ، 295 ، 299 ، 301 ، كما يعتمد على ابن حيان ، أنظر نفسه : 296 ، 299 وابن النظام ابو بكر عبد الله بن عبد الحكم ابن النظام الاخباري ، انظر نفس المصدر والصفحة، وغيرهم.

100 - وضع محقق النص المنشور احدى الكلمات المبتورة من النص المخطوط بين قوسين ، انظر فرحة الانفس 282 ، وفي النفح نتعرف عليها كالتالي : وتحسينهم".

101 - ورد في فرحة الانفس بخصوص خندق قرطبة المشهور أن "ذرع دوره من جهاته الاربع ثلاثة وعشرون ميلا "المصدر السابق" ص 296 ، في حين ينص النفح اعتمادا على ابن غالب هذا : أن دور هذا الحائط اربعة عشر ميلا " ج1 ، ص 466 ، ويذكر المحقق أن مخطوط المكتبة الكتانية رقم 2394 ك ينص على "اربعة وعشرين ميلا " نفس المصدر والصفحة.

102 - قال عنه ابن سعيد في تذييله على رسالة ابن حزم في فضل الاندلس " وابو القاسم خلف بن بشكوال له كتاب في تاريخ الأندلس من فتحها إلى زمانه ، وأضاف إلى ذلك أخبار قرطبة وغيرها مما جاء في خاطره " النفح " ج 3 ، ص 181 وهو غير كتاب الصلة الشهير.

لدقائق التفاصيل التي يقدمها عن تاريخ قصر قرطبة ومكوناته العمرانية ، يعتبر احصاءه للابواب والارباض ، الاكثر دقة واحاطة وشمولا[103] ينطبق نفس الشيء عما يقدمه بخصوص جامع قرطبة الاعظم[104] وما يرتبط به من مرافق ومصالح اجتماعية متنوعة[105] لذلك اعتبره ابن سعيد أهم مصدربهذا الخصوص" قد اعتنى بهذا الشأن أتم اعتناء ، واغنى عن الاستطلاع الى كلام غيره"[106] كما يقدم معلومات نادرة عن تقنيات النقل الثقيل خلال القرن الرابع الهجري بالاندلس[107] ينطبق نفس الشيء بخصوص قيمة ما يذكره عن احدى أقدم وأدق شبكات توزيع المياه بالنطاق الحضري[108] ويبهرنا ابن بشكوال بما يقدمه من أرقام حول مبالغ الجبايات ،و مداخيل السوق والمستخلص[109] ومقادير النفقات السلطانية في العمران[110] ورغم ما يتضمنه مصنفه احيانا من أساطير وخوارق[111] فانه يعتمد على أوثق المصادر ليقدم أدق المعلومات ، يقول على سبيل المثال:" ونقلت من خط امير المومنين المستنصر أن النفقة في هذه الزيادة (يقصد جامع قرطبة) وما اتصل بها انتهت الى مائتي ألف وأحد وستين ألف دينار وخمسمائة دينار وسبعة وثلاثين دينارا ودرهمين ونصف "[112] ويعتمد بخصوص بعض التراجم على روايات الشيخ ابي عبد الله ابن عابد الراوية الذي استفاد من خزانة الحكم المستنصر الذائعة الصيت ، ومن كتاباته التي تعتبر حجة في انساب وتراجم اهل الاندلس[113]

---

103 – انظر النفح ، ج 1 ، 465 قارن المعلومات الواردة بخصوص هذا الموضوع في البيان المغرب لابن عذاري ج 2 ، ص 232 ، وفي اعمال الاعلام ، ص 120 .

104 – انظر النفح ، ج 1 ، ص 288 ، 546 ، 550 ، 552 ، 561 – 562 ، 563 .

105 – كهدم الميضأة وبناء دار الصدقة وبيوت لمأوى الفقراء من طرف الخليفة الحكم المستنصر ، نفسه ج 1 ، ص 555 – 556 .

106 – نفسه ج 1 ، ص 560 .

107 – ففيما يتعلق بنقل حياض الرخام الثقيلة جدا من مقاطعه الى داخل قرطبة يقول :"فتهيأ حمل الواحدة منها فوق عجلة كبيرة اتخذت من ضخام خشب البلوط على فلك موثقة بالحديد الثقف محفوفة بوثاق الحبال قرن لجرها سبعون دابة من أشد الدواب ، وسهلت قدامها الطرق والمسالك ، وسهل الله تعالى حملها واحدة بعد أخرى على هذه الصفة في مدة اثني عشر يوما " النفح ، ج 1 ، ص 555 .

108 – نفسه ، ج 1 ، 464 .

109– انظر نفسه ج 211 ، نفس المعلومات مكررة في ج 1 ، ص 524 – 525 .

110 – نفسه ، ج 1 ، ص 547 .

111 – يتجلى ذلك فيما يقدمه عن بدايات الفتح العربي للاندلس وما يرتبط باوائل الفاتحين ، وهي خاصية ملازمة لمعظم ما يتداول من نصوص حول هذه المواضيع في غيره من المصادر .

112 – النفح ، ج 1 ، ص 562.

113 – نفسه ، ج 3 ، ص 11 .

ويوثق معلوماته النادرة عن قرطبة القديمة زمن الفتح بالركون الى طريقة المحدثين.[114]

ويساهم المقري من خلال حجم المادة المستخلصة من تاريخ ابن بشكوال،وبالخصوص من خلال تنوع مواضعها واختلاف المراحل التاريخية التي ترتبط بها ، في تكوين تصور لايستهان به عن جوانب من هذا المصنف . حقيقة أن المقري يعتمد كذلك على كتاب آخر لابن بشكوال المعروف باسم " التنبيه والتعيين لمن دخل الاندلس من التابعين "[115] كما يشير مرارا الى النقل عن الصلة ، ولا يوثق دائما نقوله عن كتاب التاريخ المفقود ، مع ذلك فليست هناك صعوبات تذكر للتمييز بين نصوص هذه المصنفات الثلاث.

ومن المعلوم ان النفح يحتفظ على النص الكامل لرسالة ابن حزم الشهيرة في فضل الأندلس ، وعلى التذييل الذي وضعه ابن سعيد عليها ، كما يحتفظ على النص الكامل لرسالة الشقندي في نفس الموضوع . وعلى الرغم من تركيز هذه الرسائل على ابراز الجوانب الثقافية والفكرية والبيبليوغرافية ، فهي لا تخلو من معلومات مفيدةلجوانب التاريخ الاقتصادي[116] والاجتماعي[117] بينما تتعدد النقول عن الشقندي في مختلف فصول النفح بخصوص الحواضر الاندلسية كغرناطة[118] واشبيلية[119] وقرطبة[120] بصرف النظر عما يقتبسه من مصنفه الاخر المعروف ب" الطرف ".[121]

ويزخر نفح الطيب بخصوص هذه الجوانب موضوع الدرس بأحالات على مصادر اندلسية متنوعة كالذخيرة [122] والقلائد[123] والمطمح [124] والجذوة [125] فضلا عن بعض مصنفات

114 - يقول ، "..ذكر ابن عتاب عن عبيد الله الزهراوي عن شيوخه ..."انظر نفسه ، ج 1 في هامش ، ص 563 .

115 - انظر ، النفح ، ج 3 ، 60- 64 - وعديدة هي التراجم التي ينقلها عن الصلة ، انظر ج 2 ، 28- 76- 85 - 114- 129- 515 .

116 - انظر ج 3 ، ص 212 - 213 .

117 - نفسه ، ج 3 ، ص 217 .

118 - نفسه ، ج 1 ، ص 147 .

119 - نفسه ، ج 1 ، ص 156 .

120 - نفسه ، ج 1 ، ص 456 .

121 - نفسه ، ج 2 ، ص 27 ، ج 3 ، ص 369 ، ج 1 ، ص 399 .

122 - انظر نفسه ج 1 ، ص 531 ، ج 4 ، ص 260 ، 263 ، 447.

123 - نفسه ، ج 1 ، ص 500.

124 - نفسه ، ج 1 ، ص 525 ، 585.

125 - نفسه ، ج 1 ، ص 582.

ابن الخطيب[126] وابن الابار[127] والنباهي[128] والقاضي عياض[129] وابن حزم[130] وابن النظام[131] وابن عربي[132] وغيرهم.

كما استعان بالنقل عن المصنفين المغاربة ،كالرقيق القيرواني [133] وابن بطوطة [134] وابن خلدون [135] واستفاد من كتابات المشارقة كابن حوقل [136] وابن خلكان[137] والمسعودي[138] وابن مفلح.[139]

والجدير بالملاحظة أن كتاب " المسهب في غرائب المغرب" الذي وضعه الحجاري " في نحو ستة اسفار وابتدا فيه من فتح الاندلس الى سنة 530 " [140] من المصنفات التى خضعت لاستغلال مكثف سواء فيما يتعلق بالجوانب العمرانية [141] والاقتصادية [142] والاجتماعية[143] أو بخصوص التراجم والاحداث التاريخية [144] ولا غرو ، فقد " خرج فيه عن مقصد الكتابين الى ذكر البلاد وخواصها مما يختص بعلم الجغرافيا وخلط بالتاريخ "[145] لذلك اعتبره صاحب النفح " أتم

---

126 – نفسه ، ج 1 ، ص 125 ، 505.

127 – نفسه ، ج 3 ، ص 65 ، ج 4 ، ص 56 ، 294.

128 – نفسه ، ج 1 ، ص 574.

129 – نفسه ، ج 1 ، ص 520 ، ج 2 ، ص 77.

130 – نفسه ، ج 2 ، ص 83.

131 – نفسه ، ج 1 ، 131 – 132.

132 – نفسه ، ج 1 ، ص 523.

133 – نفسه ، ج 1 ، ص 144 ، 576.

134 – نفسه ، ج 1 ، ص 152.

135 – نفسه ، ج 1 ، ص 147 ، 538 ، 577.

136 – نفسه ، ج 1 ، ص 460.

137 – نفسه ، ج 1 ، ص 244 ، 374 ، 524.

138 – نفسه ، ج 1 ، ص 143 ، 206.

139 – نفسه ، ج 1 ، ص 208.

140 – نفسه ، ج 2 ، ص 329.

141 – انظر النفح ، ج 1 ، ص 153 ، 184 ، 460 ، 461.

142 – انظر نفسه ، ج 1 ، ص 197 ، 199.

143 – نفسه ، ج 3 ، ص 18، 155، 532 ، يحتفظ على احد أهم النصوص المتعلقة بموقف العامة والفئات الاجتماعية الدنيا من الفلسفة.

144 – نفسه ، ج 1 ، ص 186، 229 ، 274 ، ج 2 ، ص 26 ، 76 ، 93 ، ج 3 ، ص 13 ، ج 4 ، ص 261 ، 275.

145 – نفسه ج 3 ، ص 183.

فائدة" [146] ولم يتوقف عن الاشادة به في اكثر من مناسبة [147] ينطبق نفس الشيء على تعامله مع مصنفات بني سعيد[148] وبالخصوص كتاب المغرب في حلى المغرب ، مما حذا باحد الدارسين الى اعتبار " النفح في أكثر جوانبه نسخة ثانية مشوشة " [149] لنص هذا الكتاب .

ويشير المقري الى اعتماده على مجموعة هامة من المصنفات في الانساب ، غاية في الاهمية بخصوص التاريخ الاجتماعي ، اخص منها بالذكر كتاب الحكم المستنصر في " انساب الطالبيين والعلويين القادمين الى المغرب " [150] وكذلك أنساب قاسم بن أصبغ [151] ومصنفاته في " فضائل بني امية " [152] " وفضائل قريش وكنانة " [153] بالاضافة الى كتاب حبيب الصقلبي الموسوم ب" الاستظار والمغالبة على من انكر فضل الصقالبة ". [154]

وعلى عكس ما هو شائع عن قلة تمحيص ابي العباس المقري ، فهناك مؤشرات دالة عن ر فضه لعدد من الروايات التاريخية التي لا تنسجم مع منطق الامر ، ونقده للاساطير العالقة بها ، استنادا على قراءاته في مصنفات " محققي المؤرخين للاندلس وثقاتهم " [155] ولم يتردد بخصوص روايات أخرى عن تبرئة ذمته منها ، والتنبيه على مواطن الخلل فيها ، وتحميل مسؤولية الخطأ لرواتها ، حتى " وان ذكرها ابن بشكوال وصاحب المغرب وغير واحد فانها عندي لا أصل لها" [156] على حد تعبيره بخصوص بعضها .

---

146 - نفس المصدر والصفحة.

147 - اذ قال عنه :" لم يصنف في الاندلس مثل كتابه " انظر النفح ، ج 3 ، ص 183، وفي مكان آخر قيل عنه:" جمع زيد الاولين والآخرين " ج 3 ، ص 185 وقال في حق صاحبه :" امام الادباء رئيس المؤلفين حسنة الزمان نادرة الاحسان ..صاحب المسهب " ج 4ص 123.

148 - الحظ بان عديدة هي النصوص المسندة لابي عمران موسى بن سعيد ، انظر ج1 ، ص 182 ، ج 2 ، ص 333 ، 334 ، ج 3 ، ص 133 ، 184 ، 378 ، 509 ، 531 ، ج 4 ، ص 76 ، 138 وبخصوص العمران الحضري، انظر ج 1 ، ص 154 ، 178 ، هذا فضلا عن النقول الكثيرة من كتاب المغرب.

149 - شوقي ضيف ، المغرب في حلى المغرب : دار المعارف ، القاهرة الطبعة الثالثة ، ج 1 ، ص 27.

150 - النفح ، ج 3 ، ص 60.

151 - نفسه ، ج 3 ، ص 174.

152 - نفس المصدر والصفحة.

153 - نفسه ، ج 3 ، ص 169.

154 - نفسه ، ج 3 ، ص 82.

155 - نفسه ، ج 1 ، ص 520.

156 - نفسه ، ج 1 ، ص 200.

كما برهن عن حرصه في أكثر من مناسبة على اثبات مصدر الروايات المشكوك في صحتها[157] استبعادا للمسؤولية . وينكشف حسه التأريخي من خلال قدارته على مقارنة الروايات المتناقضة ، والحسم بالترجيح المعلل [158] وحين تسعفه الحجة ، يكتفي بايراد الروايات مع تسجيل الاختلاف فيما بينها ، توخيا للموضوعية [159] ومع التزامه الحياد في حالات أخرى ، يعمد الى تمييز " قول ثقات مؤرخي " الأندلس [160] عن قول غيرهم ،مساعدة للقارئ على حسن الفهم والاختيار .

والجدير بالملاحظة أن المقري حريص على التصريح بمختلف عملياته المرتبطة بتقنيات الكتابة. ففي حالات النقل الحرفي ، يذكرب" أنا لم نرد أن نخل منها بحرف فأتينا بها بلفظها"[161] أو بما يؤدي هذا المعنى من عبارات مماثلة [162] وفي حالات التدخل في المتن بالحذف والتلخيص لا يتردد عن ذكر ذلك بالقول: " انتهى ملخصا "[163] "انتهى ببعض الاختصار"[164] أو" قال بعض المؤرخين .. ما ملخصه"[165] وغير ذلك من العبارات .كما يستعين المقري بالذاكرة [166] حين لا تسعفه النصوص ، وبالرواية الشفوية [167] بل واعتمادا في بعض الاحيان على السماع[168]والظن[169] والشائعات[170] مميزا هذه المستويات عن غيرها من النصوص الموثقة. في حين يكتفي بخصوص عدد هام من النقول المشكوك في مصادرها بعبارات :"قال بعض من أرخ الاندلس "[171] "وقال بعض العلماء"[172] "وقال

157 – نفسه ، ج 1 ، ص 240.

158 – انظر نفسه ، ج 1 ، ص 551 – 552.

159 – انظر نفسه ، ج 1 ، ص 541 ، وكذلك ج 1 ، ص 551.

160 – نفسه ، ج 1 ، ص 560.

161 – نفسه ، ج 1 ، ص 519 .

162 – انظر نفسه ، ج 1 ، ص 560 ، وكذلك ج 1 ، ص 586 .

163 – نفسه ، ج 1 ، ص 559 .

164 – نفسه ، ج 1 ، ص 524 .

165 – نفسه ، ج 1 ، ص 559 .

166 – انظر نفسه ، ج 1 ، ص 529 ، وكذلك ج 4 ، ص 260.

167 – انظر نفسه ، ج 3 ، ص 212 ، وكذلك ج 3 ، ص 558.

168 – انظر نفسه ، ج 3 ، ص 212.

169 – انظر نفسه ، ج ، ص 578.

170 – انظر نفسه ، ج 1 ، ص 519.

171 – انظر صفحات ، ج 1 ، ص 526 ، 540 ، 567 ، 584 .

172 – انظر صفحات ، ج 1 ، ص 459 ، 541 .

بعض المؤرخين "[173] " وفي بعض التواريخ القديمة"[174] "ورأيت في بعض الكتب "[175] "وذكر بعضهم"[176] "وغير ذلك من العبارات التي تفيد الشك والتعميم.[177]

لعل فيما سلف مايقلل من قيمة مآخذ الدارسن [178] على النفح احتواءه لروايات متناقضة ، وافتقاره للدقة العلمية والمنهجية . ومما يفقد هذه المآخذ أي معنى ، ليس وعي المقري واقراره بتناقض بعض رواياته [179] وضبط مواطن ذلك في مصنفه،بل وكذلك لكونه مدافعا على الاهمية العلمية والمعرفية لمثل هذا المسلك في التصنيف اذ يقول :" فانه ربما ينظر المتأمل هذا الكتاب فيجد في بعض الاخبار تخالفا ، فيحمل ذلك على الغلط وليس كذلك وانما السبب الحامل لذلك جلب كلام الناس بعباراتهم، والناقد البصير لا يخفاه مثل هذا ، وربما يقع التكرار وذلك من اجل ماذكر ، والله أعلم". [180]

حقيقة ان المقري كثيرا ما اضطر الى تكرار النقول في ثنايا مصنفه مبررا ذلك حينابمافيه "من فائدة زائدة "[181] وأحيانا بضغط السياق[182] وأخرى بتعدد الروايات واختلافهامن حيث اللفظ والكمال ، ولكونها "بلفظ هذا المؤرخ .. أتم مساقا "[183] من ذاك . ومع استفحال التبرير وتكرره، لم يجد بدا من التماس العذر من قراءه المنصفين وغض الطرف.[184]

---

173 – انظر نفسه ، ج 1 ، ص 226 ، 541 ، 545 ، 550 ، 558.

174 – نفسه ، ج 1 ، ص 540 .

175 – نفس المصدر والصفحة .

176 – نفسه ، ج 1 ، ص 551 .

177 – انظر على سبيل المثال ، نفسه ، ج 1 ، ص 144 ، 150 ، 162 ، 208 ، 458 ، 567 .

178 – الحبيب الجنحاني ، المقري صاحب نفح الطيب ، دار الكتب الشرقية تونس 1955 ، ص 70 ، انظر كذلك آراء كوستاف دوكات : Al Makkari : Analectes sur l'histoire de la litterature des arabes d'Espagne; l'introduction : Amesterdam oriental Press 1967 P xcvi

انظر كذلك : F. Pons Boigues, los historiadores y geographos :aràbigo -Espanoles Philo Press Amesterdam 1972, p 419.

179 – انظر نفسه ج 1 ، ص 575 .

180 – نفسه ، ج 1 ، ص 528 .

181 – نفسه ، ج 1 ، ص 559 .

182 – انظر نفسه ، ج 1 ، ص 586.

183 – نفسه ، ج 1 ، ص 412 – 413 .

184 – نفسه ، ج 1 ، ص 519.

ان تأمل محتويات القسم الاول من نفح الطيب ، والحيثيات التي أحاطت بتأليفه كفيل بالتنبيه الى كوننا أمام شكل جديد وفريد من التأليف في الاخبار. لقد كان على المقرى أن يصنف كتابا في التاريخ يحيط بمختلف الجوانب واوجه الانشطة والفعاليات بالاندلس من فكر واقتصاد واجتماع ونظم وسياسة وتاريخ وذهنيات وتراجم[185] وفق نظرة شمولية للواقع التاريخي كفيلة بتقديم تصور متكامل للقارئ بالجناح الشرقي من دار الاسلام ، وهي نظرة تحتاج لصياغتها في مصنف أدواتا ووسائل منهجية لم تتوفر في عصر المؤلف . ولعل في هذا ما يفسر بعضا من تردد المقري عن الشروع في هذا العمل ، وما يفسر تكرار التصريح ب"قلة الاطلاع"[186] والتقصير[187] وبصعوبة "هذا الغرض "[188] وبكونه ليس " له بأهل "[189] طبيعي أن يحصل مثل هذا الارتباك لمصنف يسبح وسط مادة غزيرة ومتنوعة ومقبل على شكل بكر من التأليف.

185 – انظر دوافع التاليف والحيثيات التي احاطت به في التقديم الهام الذي وضعه لنفح الطيب ، ج 1 ، صفحات 1 – 121 .

186 – نفسه ، ج 1 ، ص 520 .

187 – نفسه ، ج 1 ، ص 109 .

188 – نفسه ، ج 1 ، ص 71 .

189 – نفس المصدر والصفحة .

لائحة المصادر

1 - ابن بسام : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة : تحقيق احسان عباس : الدار العربية للكتاب ليبيا تونس : 1981.

2 - ابن بشكوال :كتاب الصلة : الدار المصرية للتاليف والترجمة : القاهرة : 1966.

3 - ابن حوقل : صورة الارض : بيروت 1979.

4 - ابن حيان : المقتبس في تاريخ الاندلس : تحقيق محمود علي مكي : لجنة احياء الترات الاسلامي : القاهزة 1971.

5 - ابن الخطيب : اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام : تحقيق ليفي بروفنسال : رباط الفتح : 1934.

6 - ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب : تحقيق شوقي ضيف : دار المعارف : القاهرة 1978.

7 - ابن عذاري : البيان المغرب : تحقيق بروفنسال/كولان : بيروت 1980.

8 - ابن غالب : فرحة الانفس في تاريخ الاندلس : قطعة من الكتاب منشورة في مجلة معهد المخطوطات العربية : المجلد الاول : الجزأ الاول : القاهرة 1955.

9 - الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس: الدار المصرية للتأليف والترجمة: القاهرة 1966.

10 - الزهري : كتاب الجغرافيا : تحقيق محمد حاج صادق : المركز الاسلامي للطباعة : الجيزة .

11 - الاصطخري : المسالك والممالك : نشردى خويه : لندن 1927.

12 - الضبي : بغية الملتمس : دار الكتاب العربي : القاهرة 1967.

13 - المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم : نشردي خويه : ليدن 1907.

14 - المقري :

أ - نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب : تحقيق احسان عباس : دار صادر بيروت 1968.

ب - ازهار الرياض في اخبار عياض : تحقيق مصطفى السقا / ابراهيم الابياري/ عبد الحفيظ شلبي : مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر : القاهرة 1939.

15 - الحبيب الجنحاني : المقري صاحب نفح الطيب : دار الكتب الشرقية : تونس 1955.

16 - عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب : دار الكتاب العربي : الاسكندرية 19.

17 - *Al Makkari : Analectes sur l'histoire de la litterature des arabes d'Espagne introduction de gustave Ducat: oriental Press amsterdam 1967.*

18 - *Philo press fransisco pons boigues: los historiadores y géografos arabigo espanoles amesterdam 1972*

الرحلة التجارية الأندلسية

من خلال كتب التراجم والطبقات

البحث في الأصل مساهمة في ندوة : "أدب الرحلات والتواصل الحضاري" التي نظمتها كلية الآداب ، مكناس بمناسبة مرور عشر سنوات على تأسيسها.

لا يخفى عن المهتمين بالدراسات الاندلسية الشغف والاهتمام الذي أولاه المصنفون للتراجم والطبقات بالاندلس ، مما اسفر عن ثروة ضخمة ، متنوعة وشاملة لمجالات مختلفة . ولقد بين ابن حزم منذ فترة مبكرة أن القول ب" تقصير أهل الاندلس في تخليد أخبار علمائهم"[1] غير ذي معنى . ففضلا عن المصنفات العامة في تاريخ الرجال[2] وتراجم " علماء الاندلس "[3] ووفياتهم[4] الفوا في تاريخ الحكماء[5] والقضاة [6] والفقهاء[7] وطبقات

---

1 - انظر المقري ، نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب ، تح احسان عباس ، دار صادر بيروت 1968 ، ج 3 ، ص 156 وذلك في رسالة فضل الاندلس التي كتبها ردا على ابي علي الحسن بن الربيب التميمي القيرواني.

2 - ذكر الحميدي ان ابو عمر احمد بن سعيد بن حزم الصدفي المنتجيلي صنف :في تاريخ الرجال كتابا كبيرا ":جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس ، الدار المصرية للتاليف والترجمة ، القاهرة 1966 ، ص 125 ، انظر كذلك الضبي بغية الملتمس ، دار الكتاب العربي القاهرة ، 1967 ، ص 281 - 82 . كما صنف مطرف بن عيسى الغساني من اهل القرن الرابع تاريخا " في رجال الاندلس " انظر ابن الخطيب الاحاطة في اخبار غرناطة ، تح محمد عبد الله عنان ، ط 2مكتبة الخانجي ، القاهرة 1973 ، م 1 ، ص 320.

3 - لعل اشهرها كتاب ابي الوليد بن الفرضي الذائع الصيت ، انظر كذلك عن طبقات علماء الاندلس ، مصنفا لمحمد بن احمد بن عامر السالمي ، ورد لدى ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة : السفر 6 ، تح احسان عباس ، دار الثقافة بيروت 1973 ، ط 1 ، ص 7- 8.

4 - نخص منها بالذكر تاريخ ابو سعيد بن يونس الشائع الذكر ،انظر الضبي ،المصدر السابق ، ص 171، انظر كذلك صفحة 104.

5 - انظر القفطي ، كتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء ، دار الاثار بيروت بدون تاريخ ، ص 140.

6 - فبصرف النظر عن كتاب قضاة الاندلس الذائع الصيت لابي الحسن النباهي ، يذكر ابن سعيد ان المؤرخ الاندلسي الشهير ابو مروان ابن حيان قد صنف هو الآخر في القضاة كتابا ، انظر المغرب في حلى المغرب ، تح شوقي ضيف دار المعارف القاهرة 1978 ، ط 3 ، ج 1 ، 70 انظر كذلك ص 155.

7 - نذكر على سبيل المثال كتاب احمد بن محمد بن عبد البرفي تاريخ "فقهاء الاندلس" انظر الضبي ، المصدر السابق ، ص 162.

الكتاب[8] والمقرئين[9] والرواة [10] والائمة والزهاد[11] كما صنفوا في اخبار الشعراء [12] ومشاهير الموشحين بالاندلس[13] ومن المصنفين من اقتصر في تراجمه امعانا في التخصص والتدقيق على إحدى المدن او الكور الاندلسية . هكذا افردت الكتب لـ " فقهاء طليطلة وقضاتها "[14] ولفقهاء البيرة وشعرائها[15] وعلمائها[16] كما تم التصنيف في" اخبار رية .. وفقهائها وشعرائها "[17] وبالمثل في قضاة قرطبة [18] وفقهاء مالقة [19] وعلماءها ، بل هناك من وضع المؤلفات الضابطة لافراد قومه وعشيرته ، يذكر ابن الخطيب من بينهم غرناطي منتسب في عامر بن صعصعة "ألف في تاريخ قومه وقرابته"[20] وصنف غيره في" تسمية اعيان الموالي بالاندلس ".[21]

حقيقة أن القسم الاكبر من هذه الثروة قد عبثت به يد الدهر، ومازالت عدد من المصنفات مخطوطة لم تحظ بعد بما تستحقه من عناية النشر والتحقيق . مع ذلك ، فبالمقارنة مع غيرها من

---

8 - نخص منها "طبقات الكتاب بالاندلس "لمحمد بن موسى بن هشام النحوي المعروف بالافشتين ، انظر الضبي ، المصدر السابق ، ص 127 ،والحميدي ، المصدر السابق 88 وكذلك "طبقات الكتاب بالاندلس " الذي صنفه سكن بن سعيد الاديب الاخباري ، انظر الضبي ، نفس المصدر السابق وكذلك الذيل والتكملة ، السفر 4 ، تح احسان عباس .

9 - ذكر الضبي في المصدر السابق ، عثمان بن سعيد عثمان المقرئ المتوفى سنة 444 بكونه قد "تصدر بالقراءات والف فيها ، وفي طبقات رجالها تواليف مشهورة كثيرة" ص 412.

10 - ذكر ابن خير ضمن مؤلفات ابي الوليد بن الفرضي كتاب " المتشابه في اسماء الرواة ،وكناهم وانسابهم "الفهرسة ، تح كوديرا وخوليان ربيرا ، الخانجي القاهرة 198 ، ص 218.

11 - ذكر ابن سعيد ان ابن بشكوال قد الف كتابا " في زهاد الاندلس وائمتها " المصدر السابق ، ج 1 ، ص 166. نشر مؤخراً مصنفه حول "المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات" بتحقيق وترجمة مانويلا مارين : C.S.I.C : مدريد 1991.

12 - نذكر ممن الف في هذا الموضوع محمد بن هشام بن عبد العزيز المرواني الذي عاش في خلافة عبد الرحمن الناصر ، انظر الضبي ، المصدر السابق ، ص 139 ، وكذلك الحميدي ، المصدر السابق ، ص 96.

13 - الذيل والتكملة ، السفر الخامس القسم الاول ، ص 188.

14 - ابن بشكوال ، الصلة الدار المصرية للتاليف والترجمة القاهرة 1966 ، ق 1 ص 70.

15 - انظر ابن الخطيب ، المصدر السابق ، م 1 ، ص 320.

16 - نفسه م 3 ، ص 176- 78.

17 - الحميدي ، المصدر السابق ، 169 انظر كذلك الضبي ، المصدر السابق ، ص 236.

18 - نخص هنا بالذكر الكتاب الشهير بهذا العنوان لابن حارث الخشني.

19 - ابن عسكر : فقهاء مالقة وادبائهم : مخطوط الخزانة الحسنية رقم 1055.

20 - الاحاطة ، م 1 ، ص 164.

21 - الضبي ، المصدر السابق ، ص 211.

المصادر، تشكل كتب التراجم - كميا على الاقل - القسم الاوفر ضمن المتداول في المكتبة الاندلسية[22] فضلا عن ذلك ،فمن المتعارف عليه ان العديد من المصنفات الاندلسية العامة في الادب والتاريخ ماهي في جوهرها وفي قسم هام من مضامينها الاشكلا من اشكال التراجم . وتقدم ذخيرة ابن بسام واحاطة ابن الخطيب ونفح الطيب للمقري الامثلة الأكثر دلالة على ذلك . بصرف النظر عن العدد الهائل من التراجم الاندلسية المتناثرة في مصادر جد متنوعة أو المبوبة ضمن محتويات عدد من كتب التراجم والطبقات العامة.[23]

ورغم التداول المكثف لهذا الصنف من المصادر في الدراسات الاندلسية المعاصرة يبدو أن المادة الغزيرة والمتنوعة التي تحتويها لم تستغل بعد بما فيه الكفاية . سواء فيما يتعلق بالتأريخ للاتجاهات الفكرية والمذهبية [24] أوبمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية . ومن خلال قراءة واسعة في متونها ، نتساءل عما يمكن ان تلقيه من اضواء على احدى الزوايا المظلمة من تاريخ الاندلس ويتعلق الامر بالرحلة التجارية.

من المتعارف عليه أن الرحلات التجارية بين العدوتين المغربية والاندلسية ما فتئت تزداد اتساعا وكثافة ، خصوصا خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين . وذلك " لقرب المزار وكثرة السفار وترددهم اليهم وتكررهم علينا "على حد تعبير ابن الربيب التميمي القيرواني[25] وتزخر كتب التراجم بمعلومات فائقة الاهمية عن الرحلة من اجل التجارة بالاندلس ، شملت تجارا من مدن القيروان[26]

22 - نخص منها بالذكر تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى ، وقضاة قرطبة للخشني وصلة ابن بشكوال وجذوة الحميدي وبغية الضبي وقضاة الاندلس للنباهي وتكملة ابن الابار وحلته ، والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي وقلائد ومطمح ابن خاقان ومغرب ابن سعيد المعتمدة بالأساس الى جانب ترتيب المدارك والغنية للقاضي عياض في هذه الدراسة.

23 - مثل كتاب انباه الرواة على انباء النحاة للقفطي وبغية الوعاة في طبقات النحويين لجلال الدين السيوطي ووفيات الاعيان لابن خلكان وغيرها من التراجم الكبرى المعروفة.

24 - ومن المعلوم ان هذا الموضوع قد اثار اهتمام عدد من الباحثين العرب والمستشرقين ، نخص منهم بالذكر محمود علي مكي ، وفرحات الدشراوي في اعمالهم عن التشيع بالاندلس ، وأسين بلا صيوص وميغيل كروث هيرنانديس فيما انجزوه عن المدرسة المسرية ومختلف الاتجاهات الفكرية بالاندلس ومؤخرا خصصت ماريا ايسابيل فييرو دراسة حول : La heterodoxia en al-andalus durante el periodo omeya

25 - انظر المقري ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 159.

26 - انظر ابن بشكوال ، المصدر السابق ، ج 2 ص 539 - 40 ، 541 - 42 ، 596 انظر كذلك القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، ج 8 ، ص 112- 13 .

وتونس[27] وتاهرت[28] ووهران[29] بافريقية والمغرب الاوسط ، ومن نكور[30] والبصرة وطنجة [31] وسبتة [32] واصيلا [33] وبلاد نفيس[34] بالمغرب الاقصى . ولا غرو ، فالاندلس اشتهرت بكونها " قرارة كل فضل ، ومنهل كل خير ومقصد كل طرفة ومورد كل تحفة ، وغاية آمال الراغبين ونهاية اماني الطالبين ، ان بارت تجارة فاليها تجلب وان كسدت بضاعة ففيها تنفق".[35]

فضلا عن هذه العوامل الاقتصادية ، واضطرار العدويين " الى اهل الاندلس لوجود بعض الأشياء عندهم وفقدها ببلاد المغرب "[36] كثيرا ما وقفت السلطة السياسية بالاندلس ،لاستمرار تدفق هذه الرحلات ، موقف التشجيع المطلق .تكشف عن ذلك عدة مؤشرات[37] نذكر منها على سبيل المثال، تدخل المنصور بن عامر شخصيا في خصومة ونزاع فتاة الاكبر المعروف بالميورقي مع التاجر المغربي .. وهو يومئذ أكبر خدم المنصور اليه امر داره وحرمه .. فانصفه منه".[38]

ومن الملاحظ ان معظم هؤلاء التجار - ان لم يكن جلهم - من اهل القلم ، منهم من " لزم التجارة "[39] رغم كونه من مشاهير فقهاء سبتة . ومنهم من " دخل القيروان طالبا

27 - ابن بشكوال ، المصدر السابق ، ج 2 صفحات 553 و 612.

28 - الضبي المصدر السابق ، 201 انظر كذلك ابن الفرضي علماء الاندلس ، ص 152.

29 - بن بشكوال ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 298.

30 - الحميدي ، المصدر السابق ، 267 ، ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق س 8ص 213 - 14 انظر كذلك س 4 ، 46 ، انظر كذلك القاضي عياض ، الغنية ،تح ماهرزهير جرار ، دار المغرب الاسلامي ، بيروت 1982 ، ص 155- 56.

31 - القاضي عياض ،ترتيب المدارك ، ج 8 ، ص 199.

32 - نفسه ، ج 8 ، 171 انظر كذلك صفحات 112- 113.

33 - نفسه ، ج 8 ، ص 179- 80.

34 - ابن بشكوال المرجع السابق ، ج 2 ، ص 581.

35 - المقري ، المرجع السابق ، ج 3 ، ص 156- 157.

36 - نفسه ، ج 1 ، ص 244.

37 - فلما اعاد عبد الرحمن الناصر السيطرة على مدينة نكور مثلا سنة 325 هـ يقول موسى بن ابي العافية القائم بدعوته بالمغرب :" حملنا السيف على من استحق منهم ، واعفينا الرعية واصحاب السلامة من التجار " . ابن حيان ، المقتبس ، تح شالميتا /كورينطي / صبح ، المعهد الاسباني العربي للثقافة مدريد 1979 ، 414 انظر كذلك ابن سعيد ، المرجع السابق ج 1 ، 180 -81 ، والمقري المصدر السابق ، ج 1 ، ص 401 - 402.

38 - المقري ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 410.

39 - القاضي عياض، ترتيب المدارك ، ج 8 ، ص 171.

وتاجرا"[40] وهناك من اهتم بالتدريس إلى جانب اشتغاله " بالتجارة فطاف بلاد المغرب والاندلس واخذ عنه هناك الناس وسمعوا منه كثيرا"[41] فضلا عمن اسندت له خطة القضاء " وكان يشتغل بالفقه والتجارة"[42] ينطبق نفس الشيء على الاديب الشهير ابن الربيب التميمي القيرواني السالف الذكر فهو الآخر " قدم الاندلس تاجرا سنة 416 "[43] بالمثل كان محمد بن القاسم بن ابي جاخ القروي " من اهل العلم والرواية والعفاف والنفاذ في امور التجارة والبصر بانواعها " حسب رواية شيخ مؤرخي الاندلس ابي مروان بن حيان [44] ولعل في قول يحيى بن ابراهيم الجدالي مخاطبا ابا عمران الفاسي ب " أننا في الصحراء منقطعين لا يصل الينا إلا بعض التجار الجهال ، حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ولاعلم عندهم"[45] مايدل عن شذوذ واستثناء هذه الحالة عن قاعدة الارتباط الوثيق بين العلم والتجارة. على أي ، ففي هذه الحقائق مايكشف عن سر اهتمام كتب التراجم والطبقات بالرحلة التجارية التي غالبا ما قدمت كمعلومات عرضية في سياق التأريخ لاهل القلم.

ولم تكن رحلات التجار المشارقة الى الاندلس أقل كثافة . تقدم كتب التراجم اسماء عدد من التجار المصريين الذين وفدوا عليها من الاسكندرية [46] ودمياط[47] وتنيس[48] وغيرها[49] من المدن والمناطق . كما تقاطرت الرحلات التجارية باستمرار من مدن الشام كحمص[50] وبيت المقدس[51] واطرابلس[52] ودمشق[53] ومن مدن الحجاز[54] فضلا عن رحلات التجار العراقيين

---

40 – نفسه ، ج 8 ، ص 169 انظر كذلك صفحة 180.

41 – نفسه ، ج 8 ، ص 113.

42 – نفسه ، ج 8 ، ص 199.

43 – ابن بشكوال ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 541.

44 – انظر نفسه ج 2 ، ص 540.

45 – ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب ، تح احسان عباس ، دار الثقافة بيروت 1980 ج 4 ، ص 7.

46 – المقري ، النفح ج 3 ، ص 143.

47 – ابن بشكوال ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص 579.

48 – نفسه ، ج 2 ، ص 640 .

49 – نفسه ، ج 2 ، صفحات 267 ، 353 ، 54 ، 622.

50 – نفسه ، ج 2 ، ص 367.

51 – نفسه ، ج 2 ، ص 432 انظر كذلك القاضي عياض ، الغنية 181.

52 – ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 659.

53 – نفسه ، ج 2 ، ص 446 انظر كذلك ج 1 ، ص 305.

54 – نفسه ، ج 2 ، ص 297.

من البصرة [55] وبغداد [56] وحران [57] وغيرها [58] وتواترت المعلومات بخصوص التجار الوافدين من تستر [59] ونيسابور [60] والشاش وسمرقند [61] وخراسان. [62]

حقيقة أن معظم التراجم تكتفي بالاخبار عن الهدف التجاري للرحلة ، مع ذلك ففي بعض المؤشرات الاضافية ما يكشف عن طبيعة السلع المتداولة . فمن التجار الوافدين من كان صوافا [63] ومن كان جوهريا [64] أو بزازا [65] واشتغل العديد منهم بالتجر في " الياقوت النفيس" [66] كما اشتهروا بالثروة والغنى ، فمنهم من "كان عنده آلاف من الاموال [67] ومنهم من كان "عظيم اليسار" [68] ولعل في دأب الخلفاء الامويين وملوك الطوائف بعدهم على استقبال بعض الوافدين منهم على الحواضر السلطانية [69] ما يؤكد الطابع الترفي لهذا الشكل من التجارة المرتبطة اساسا بحاجيات القصور السلطانية والمنى الارستقراطية ، وبطلبات الفئات المحظوظة . مع ذلك ، فباستقصاء ما تقدمه بقية

---

55 – نفسه ، ج 2 ، ص 598.

56 – نفسه ، ج 2 ، صفحات 544 ، 599 ، 634.

57 – نفسه ، ج 2 ، ص 599.

58 – نفسه ، ج 2 ، ص 541 – 42.

59 – نفسه ، ج 2 ، ص 660.

60 – المقري النفح ، ج 3 ، ص 67.

61 – ابن بشكوال ، المصدر السابق ج 2 ، 637 انظرْ كذلك ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج 2 ، ص 50.

62 – ابن بشكوال المصدر السابق ج 1 ، ص 111.

63 – نفسه ، ج 2 ، ص 353 ، انظر كذلك الضبي ، المصدر السابق ، ص 199.

64 – المقري النفح ، ج 1 ، ص 412 ، كذلك ابن بشكوال ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 581.

65 – الضبي، المصدر السابق ، 199 و 201 ، انظر كذلك ابن بشكوال ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 111 ، والجدير بالملاحظة أن كساء واحدا بالبزازين بقرطبة بلغ ثمنه في إمارة عبد الله الاموي ، اربعة وعشرين دينارا ونصف دينار ، انظر الخشني ،قضاة قرطبة ، الدار المصرية للتاليف والترجمة القاهرة 1966 ، ص 95.

66 – المقري ،المصدر السابق ، ج 1 ، ص 401.

67 – ابو حامد الغرناطي ، تحفة الالباب ، تح غابريل فيران باريس 1925 ، ص 143.

68 – ابن بشكوال ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 637 انظر كذلك النباهي تاريخ قضاة الاندلس دار الافاق الجديدة بيروت 1980 ، ص 77 ويقدم الخشني مثالا نموذجيا عن مدى استفحال ثروات التجار انظر، المصدر السابق ، ص 83.

69 – انظر ابن بسام ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، تح احسان عباس الدار العربية للكتاب ليبيا تونس . ق 4 ، م 1 ، ص 85.

المصادر العربية ، التي تكشف عن مستويات أخرى بهذا الخصوص[70] لاسيما كتب المسالك والممالك الجغرافية [71] مايدعو الى التحفظ من تعميم هذا التصور على مجموع هذا النوع من النشاط التجاري .

ويتجلى من خلال كتب التراجم والطبقات المعتمدة ، أن رحلات التجار الاندلسيين الى الآفاق قد حظت باهتمام أوفر ، والمعلومات ضافية في عدد من المصادر بخصوص الموانيء والمراكز التجارية التي أقاموها منذ عهد مبكر بأكثر من منطقة [72] حتى اشتهروا في حوض البحر الابيض المتوسط بكونهم" أخبر الناس به وحدوده وخلجانه لانهم يسافرون فيه"[73] وفضلا عن الرحلات القصيرة التي داومها البعض بداخل الاندلس مترددا بين حواضرها[74] شكلت العدوة المغربية مجالا لنشاط العديد من التجار الذين حملوا سلعهم الى سبتة [75] التي اتخذها البعض معبرا الى " مدينة سلا "[76] والى غيرها من المدن المغربية .في حين فضل أحد الاشبيليين ممن كان " محترفا بالتجارة والخياطة"[77] الأستقرار ب"مدينة فاس طويلا في بعض خاناتها "[78] وبالمثل أقدم تاجر بلنسي "من ذوي اليسار والجدة ، متحرفا بتجارة يذيرها بقيسارية سبتة بعد نزوحه من بلده"[79] على نقل مجمل امواله و نشاطه

---

70 - فالتجارة البعيدة المدى في اطار الحضارة العربية - الاسلامية لم تكن ترفية بالاساس خصوصا خلال القرن الرابع الهجري ، بل مرتبطة بالقطاعات المنتجة فلاحية وحرفية وبقطاع البناء والخدمات كذلك ، انظر بخصوص الاندلس خلال القرن الرابع الهجري ، احمد الطاهري عامة قرطبة في عصر الخلافة منشورات عكاظ الرباط 1989 الفصل المخصص للتجارة. ذكر ابن سعيد على سبيل المثال "جبل غمارة العالي الطول العريض .. ومنه يحمل خشب الأرز الذي تنشأ منه الأساطيل ، ويعرف في الأبنية الملوكية ويحمل الى الآفاق" انظر كتاب الجغرافيا : ص 139.

71 - انظر بعض التفاصيل الهامة حول هذا الموضوع على سبيل المثال لا الحصر لدى المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، نشر دي خويه ، ليدن 1906 ، ص 239 ، انظر كذلك الاصطخري ، المسالك والممالك نشردي ، خويه ليدن ، 1927 ، 45، وكذلك ابن حوقل ، صورة الارض بيروت 1979 ، ص 109.

72 - انظر البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، دي سلان باريس 1965 صفحات 55 ، 65 - 66، 69 - 70 ، 85 - 86.

73 - المقدسي ، المصدر السابق ، ص 15.

74 - ابن بشكوال المصدر السابق ، ج 1 ، ص 311.

75 - القاضي عياض ، الغنية ، ص 181.

76 - نفسه ، ص 184.

77 - ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ، س 5 - ق 2 ، ص 649.

78 - نفسه س 5 ق 2 ، ص 648.

79 - نفسه ، ص 7 ، 341.

الى هذه المدينة المغربية ودأب غيره على التجوال والرحلة بين مختلف حواضر " بلاد افريقية والاندلس"[80] وهناك من عمق دائرة نشاطه في اتجاه " طرابلس .. (و)برقة "[81] في تخوم المغرب الادنى.

كما شكل الجناح الشرقي لدار الاسلام مركز استقطاب لعدد من التجار الاندلسيين الذين تقاطروا على مختلف جهاته بغرض التجارة ، من قرطبة [82] وطليطلة [83] وبلنسية [84] وغرناطة[85] وغيرها من المدن الاندلسية ، بل وحتى من صغريات المراكز الحضرية [86] وفضلا عن الحجاز[87] والعراق[88] وبلاد الشام[89] والاسكندرية ومصر[90] طالت هذه الرحلات التجارية بلدانا أخرى ك"خراسان وأرض فارس"[91] بالاضافة لكرمان ونيسابور وجرجان[92] ولعل في هذا ما يفسر نعت المقدسي الاندلسيين بكونهم "يكثرون التجارة والتغرب"[93] والجدير بالملاحظة أن الرحلات التجارية الاندلسية ، تجاوزت هذه المناطق في اتجاه بلاد الهند بالشرق الاقصى.

ذكر ابن الفرضي[94] أحدهم" ممن دخل أرض الهند تاجرا ، وكان يقول خرجت منصرفا من أرض الهند وأنا اقرر أن معي قيمة ثلاثين ألف دينار" من السلع . وتحدث غيره عن اهمية مدينة سبتة كسوق

---

80 – ابن بشكوال ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص631 انظر كذلك ، ج 2 ، ص 615.

81 – ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص 55.

82 – نفسه ، ص 247 ، انظر كذلك ابن الابار، التكملة لكتاب الصلة تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، القاهرة 1956 ، ص 205.

83 – ابن بشكوال الصلة ، ج 1 ، 238 – 39.

84 – عبد الملك المنراكشي ، المصدر السابق ، س 6 ، ص 282.

85 – نفسه س 6 ، ص 484.

86 – انظر ابن الفرضي. المصدر السابق ، ص 54.

87 – عبد الملك المراكشي. المصدر السابق ، س 6 ، ص 484 .

88 – ابن الفرضي: المصدر السابق ، ص 247.

89 – ابن بشكوال :المصدر السابق ،ج 1 : ص ض 238 – 39.

90 – عبد المالك المراكشي ، المصدر السابق ، س 6 ، ص 484.

91 – ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص 54.

92 – نفس المصدر والصفحة.

93 – المقدسي ، المصدر السابق ، ص 236.

94 – المصدر السابق، ق 2 ، 68 انظر كذلك مزيدا من التفاصيل عن هذه الرحلة لدى ابن حزم ،الفصل في الملل والاهواء والنحل، تح محمد ابراهيم نصر- عبد الرحمن عميرة دار الجيل، بيروت 1985، ج2 ، ص258.

كبرى لاعادة توزيع وتسويق بضائع الشرق الأقصى ببلاد المغرب والاندلس، إن لم يكن بمجموع الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط وبأوروبا الغربية [95] يمارس ذلك " التجار الاغنياء الذين يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة "[96] وتقدم كتب الجغرافية[97] وغيرها من المصادر العربية [98] معلومات مفصلة عن مختلف البضائع التي تجلب من الهند الى بلاد الاندلس . بالموازاة لذلك "يجلب اليهم من بلاد الاندلس الزئبق والكبريت الاحمر وثياب السندس الغالي الثمن" حسب رواية ابي عبد الله الزهري.[99]

ومما ساعد على تكثيف الرحلة التجارية الى الهند من الاندلس ، ما كان متوفرا بهذه البلاد من خدمات تجارية مختلفة ، كشف عن بعض تفاصيلها ابن رضوان[100] في نص بالغ الدلالة . وكان الهنود امعانا في تشجيع التجارة مع دار الاسلام "يحترمون التجار من المسلمين غاية الاحترام ولا يؤخذ منهم اعشار في بيع وشراء ولا مكس"[101] وفي نص فريد للضبي[102] عن رحلة أحد الاندلسيين الى الهند قبل الثلاثمائة للهجرة قصد المداواة من ورم خبيث ، ما يكشف عن تجاوز العلاقات بين الاندلس والهند شؤون التجارة الى مستويات أعمق .

ولم تكن الصين أقل تشجيعا للتجارة والتجار . ففضلا عما عرف به أهلها من كونهم " يكرمون التجار"[103] فلقد اشتهرت في مختلف الافاق بكونها" آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافر.

---

95 - انظر عن دور قرطبة خلال عصر الخلافة كمحور لاعادة توزيع مختلف انواع السلع الى ايطاليا واروبا الغربية، احمد الطاهري ، المرجع السابق ، الفصل المتعلق بالتجارة.

96 - ابن سعيد ،كتاب الجغرافيا تح اسماعيل العربي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت 1970، ص 139.

97 - ابو عبد الله الزهري ، كتاب الجغرافية تح محمد حاج صادق المركز الاسلامي للطباعة الجيزة بدون تاريخ ، ص 19- 20.

98 - انظر على سبيل المثال المعلومات الواردة بهذا الخصوص لدى ابو حامد الغرناطي المصدر السابق ، ص 48 - 49.

99 - المصدر السابق ، ص 31.

100 - الشهب اللامعة في السياسة النافعة ، تحقيق علي سامي النشار ، دار الثقافة البيضاء ، 1984 ، ص 315.

101 - ابو حامد الغرناطي ،المصدر السابق ، ص 50.

102 - المصدر السابق ، ص 127- 28.

103 - اسحاق بن الزيات ،ذكر الاقاليم ، تح فرانسيسكو كاستيلو ، المجلس الاعلى للابحاث العلمية معهد ميلاس باليكروسا للتاريخ والعلوم العربية ، برشلونة 1989، ص 301.

الانسان يسافر منفردا يسير مسيرة تسعة أشهر ويكون معه الاموال الطائلة ، فلا يخاف عليها"[104] ولم يكن بعدها عن الاندلس ليثني همم التجار عن مقارعة الاهوال ومجاهدة النفس قصد تحقيق أكبر الارباح . يؤكد ذلك ابو حامد الغرناطي[105] فيما أورده عن "رجل من التجار ممن سافر الى الصين في البحر وأقام بها مدة ووصل الى المغرب باموال عظيمة " .

وتحتفظ كتب التراجم بمعلومات فائقة الاهمية عن عدد من رحلات التجار الاندلسيين الى بلاد الصين ، منهم من "سافر الكثير برا وبحرا واخترق من الاندلس الى بلاد الصين"[106] وانتسب لذلك صينيا"[107] ولعل فيما ذكره الزهري[108] عن رحلة أحد امهر النساجين الصينيين من بلاد التبت للعمل بمناسج المرية [109] ما يكشف ليس فقط عن كثافة العلاقات التجارية بين الصين والاندلس ، بل كذلك عن عمق التأثير واهمية التفاعل الحضاري بينهما .

ويقدم ابن عبد البر [110] وغيره من المصنفين [111] معلومات هامة عن عدد من المراكز والمدن ذات الاهمية التجارية بالصين "التي تنزلها مراكب التجار"[112] مما يكشف عن دورهذا النشاط الاقتصادي في تقريب هذه البلاد من معارف أهل القلم ببلاد المغرب والاندلس .

---

104 - ابن رضوان ، المصدر السابق ، ص 314.

105 - المصدر السابق ، ص 108.

106 - ابن الابار، الذيل والتكملة السفر 4 ، 16 ويقدم ياقوت الحموي مزيدا من المعلومات عن هذه الرحلة انظر معجم البلدان، دار صادر ، بيروت 1979 ، ج 1 ،ص 491 ، وعن مزيد من المعلومات انظر كذلك جمال الدين عبد الرحيم الاسنوي ،طبقات الشافعية ،تح عبد الله الجبوري ، دار العلوم للطباعة والنشر المملكة العربية السعودية الرياض ، 1981 ، ج 1 ، ص 250.

107 - ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج 1 ، ص 461.

108 - المصدر السابق ، ص 64.

109 - ولا غرو فلقد اشتهرت المرية بكثرة ما احتوته من المناسج " قال بعضهم كان بالمرية لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول ، وللحلل النفيسة والديباج الفاخر الف نول ، وللا سقلاطون كذلك ، وللثياب الجرجانية كذلك ، وللا صفهانية مثل ذلك ، وللعتابي والمعاجر المدهشة والستور المكللة " المقري ، المصدر السابق ج 1 163.

110 - القصد والامم في التعريف باصول انساب العرب والعجم ومن اول من تكلم بالعربية من الامم ابراهيم الابياري ، دار الكتاب العربي بيروت 1985 ، ص 59.

111 - اسحاق بن الزيات ، المصدر السابق ، ص 301.

112 - ابن عبد البر النمري ، المصد رالسابق ، ص 59.

وعلى عكس البلدان والمناطق السابقة ، يبدو أن اهمال كتب التراجم للرحلة الاندلسية الى اروبا الغربية يكاد يكون مطلقا .حقيقة أن هذه المنطقة ظلت منغلقة ومتخلفة عن مواكبة تطورات العصر ، على الاقل الى حدود القرن الخامس الهجري ، مع ذلك ، تمكنت التجارة الاندلسية من اختراق بنياتها وفتح شرايين التبادل مع العديد من بلدانها . وليس أدل على ذلك من تقاطر سفارت عدد من الممالك والامارت المسيحية [113] على قرطبة طلبا لـ" الصلح والالفة "[114] فضلا عن العلاقات الدبلوماسية الشهيرة والسفارات المتبادلة مع كبريات البلدان كبيزنطة [115] وامبراطورية الفرنجة.[116]

ومن الملاحظ أن عداهم التجار الذين رافقوا " رسول صاحب جزيرة سردانية " [117] لدى نزوله سفيرا على الخليفة عبد الرحمن الناصر "بضروب من تجاراتهم النفيسة "[118] وبالمثل ،فلما بعث صاحب برشلونة سفيره " الى الحضرة .. سال تامين تجار ارضه على الاختلاف الى الاندلس"[119] ويذكر ابن حيان [120] في نص بالغ الدلالة "احتلال تجار الملفيين بقرطبة اتوا الاندلس في البحر طلب التجارة فيها ". مما يكشف عن دورهذه الجهود الدبلوماسية المكثفة في فتح آفاق رحبة باروبا آمام الرحلة التجارية الاندلسية .

وتقدم المصنفات التاريخية [121] وكتب الجغرافية [122] عددا من المؤشرات الدالة عن كثافة الرحلات التجارية بين الاندلس والمدن الايطالية ابتداء من سنة 330 هجرية .كما تكشف عن احدى المسالك الهامة لتجارة "القصدير والنحاس اللذان يجلبان من جزيرة انكلطرة وجزيرة

113 – نخص منها بالذكر مملكة جليقية ، انظر المقتبس ، قطعة الحجي ، صفحات ، ص 27 ، 63 – 64 ، 76 ، وقطعة صبح – شاليتا – كروينطي ، ج 5 صفحات 457 ، 458 ، 468 ، ومملكة برشلونة انظر نفسه قطعة الحجي، صفحات 168– 67، 182–83. وقطعة صبح -شامليتا – كورينطي ، ج 5 ، 454 – 455 ، وغيرها من سفارات "رسل ملوك العجم " نفسه ، قطعة الحجي 138.

114 – المقتبس ، ج 5 ، ص 485.

115– انظر على سبيل المثال ، المقتبس قطعة الحجي ، ص 71.

116 – ذكر ابن عذاري المراكشي وصول سفارة هوتو الى قرطبة سنة 342 هـ ، انظر المصدر السابق ج 2 ، ص 218 . ويذكر ابن حيان وفود سفارة ثانية سنة 363 هـ ، المقتبس ، قطعة الحجي ، ص 169.

117 – المقتبس ، قطعة صبح كورينطي -شاليتا ، ج 5 ، ص 485.

118 – نفس المصدر والصفحة.

119 – نفس المصدر والصفحة.

120 – نفسه ، ج 5 ، ص 478.

121 – نفس المصدر والصفحة.

122 – ابو عبد الله الزهري ، المصدر السابق ، ص 76 – 77.

ارلندة"[123] ولا تعوز المعلومات بخصوص الرحلات الاندلسية في اتجاه القطب الشمالي نحو البلاد الاسكندنافية الى اقصى شمال اوربا ، التي قال عنها "بعض التجار ، النهارعندهم في الصيف طويل جدا حتى ان الشمس لاتغيب عنهم مقدار اربعين يوما. في الشتاء ليلهم طويل جدا حتى تغيب الشمس عنهم مقدار اربعين يوما والظلمات قريبة منهم "[124] بصرف النظر عما هو متداول عن مسالك التجار الاندلسيين الى روسيا[125] وبلاد البلغار .[126]

ينطبق نفس الشيء على الرحلة الاندلسية الى بلاد السودان التي اهملتها كتب التراجم اهمالا يكاد يكون بهذا الخصوص كذلك مطلقا . ومن المعلوم ان المبادلات التجارية مافتئت تزداد كثافة واتساعا بين المنطقتين، خصوصا خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين : برا عبر المسالك المغربية ، وبحراعبر" السوس الاقصى وهو آخر ما تبلغ اليه مراكب الاندلس "[127] ويكشف العذري[128] بهذا الصدد عن دور ميناء شاطبة الذي "يتجهز منه التجار بالامتعة الى غانة وبلاد السودان" . والمعلومات ضافية عن دور الذهب [129] و"الخدم السود"[130] في جذب اهتمام التجار ، ليس من الاندلس فحسب، بل من مختلف مناطق وحواضر دار الاسلام .

نخلص الى أن صمت واهمال كتب التراجم والطبقات للرحلة الاندلسية نحو اوربا وبلاد السودان مرتبط من جهة باقتصار هذا النوع من التصنيف على التأريخ لأهل القلم . ومن جهة اخرى ، بنوعية التجار المترددين على هذه المناطق، الذين اقتصر نشاطهم في الغالب على التجارة .ومن المعلوم ان هذه المناطق لاتوفر المناخ المناسب ولا المستوى اللائق ، وتنعدم بها مراكز الاشعاع العلمي والثقافي القادرة على جذب العلماء والمثقفين من التجار. ولعل في قول يحيى بن ابراهيم الجدالي ،

---

123 – ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، المصد رالسابق ، ص 181.

124 – ابو حامد الغرناطي ، المصدر السابق ، ص 239.

125 – ابن خرذاذبه ،المسالك والممالك ،مطبعة بريل الطبعة الثانية نشر دي خويه ليدن 1967 ، ص 154 ، انظر كذلك البكري ،جغرافية الاندلس واوربا من كتاب المسالك والممالك ، تح عبد الرحمن الحجي ، دار الارشاد بيروت الطبعة الاولى ، 1968، ص 152- 153.

126 – ابو حامد الغرناطي ،المصدر السابق ، ص 118.

127 – ابن عبد البر النمري ، المصدر السابق ، ص 35.

128 – العذري ، ترصيع الاخبار وتنويع الاثار، تحقيق عبد العزيز الاهواني، منشوات معهد الدراسات الاسلامية مدريد 1965 ، ص 19.

129 – انظر على سبيل المثال ، ابو حامد الغرناطي ، المصدر السابق ، ص 41 – 42.

130 – الاصطخري ، المصدر السابق ، ص 45.

السالف الذكر ، بـ " أننا في الصحراء منقطعين لايصل الينا الا بعض التجار الجهال ، حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ولا علم عندهم "[131] ما يؤكد صحة هذا التحليل .

ومن خلال التدقيق في المعلومات التي تقدمها التراجم الاندلسية ، على اقتضابها يمكن الكشف عن مختلف الشرائح المكونة لفئة التجار المترددين على الافاق . ففي خلافة عبد الرحمن الناصر ، اشتهر عدد من العرفاء المتخصصين في جلب المنسوجات الفاخرة والتحف النادرة والاسلحة ومواد البناء المختلفة تلبية لحاجيات القصور السلطانية . نخص منهم بالذكر" العريف المعروف بالقلفاط "[132] وعبد الله بن يونس وحسن القرطبي وعلي بن جعفر الاسكندراني وربيع بن زيد الاسقف[133] وغيرهم . وبالمثل ، كان خلفه الحكم المستنصر" يبعث .. الى الاقطار رجالا من التجار ويرسل اليهم الاموال "[134] وقد بلغ نفوذ وجاه بعضهم أن تجاوز مهامه التجارية للاسهام بفعالية في المخططات الامنية للخلافة الاموية .ففي سنة 361 هـ "ورد الخبر بقبض محمد بن سليمان التاجر المعروف بابن نقورة على الفاسق عبد الملك بن سميت المعروف بخنوص الآبق "[135] بسواحل افريقية في العدوة المغربية ، لكونه قد انحاز ثائرا لائذا الى الدولة الفاطمية . استمرت بعدئذ ظاهرة توكيل التجار من طرف الملوك قصد تحريك اموالهم ،سارية المفعول خلال عصر الطوائف .يكشف عن ذلك أحد التجار بقوله متحدثا عن ولي نعمته المعتمد بن عباد : "أمر خادما له فاعطاني ما أعيش من فائدته الى الان فاني انصرفت الى المرية وكان يعجبني سكناها والتجارة بها ، لكونها ميناء لمراكب التجار من مسلم وكافر،فتجرت فيها"[136] وهوما أكده ابن بسام[137] فيما أورده عن " بعض وزراء اشبيلية قال : جهز عباد بعض التجار إلى صقلية "،في مهمة تجارية .

وعلى غرار الخلفاء والملوك، دأب رجالات الدولة وأرباب الخطط على توكيل التجارفي مهام بداخل الاندلس وكذا في الافاق البعيدة.يذكر الخشني[138] ان قاضي الجماعة سلميان بن أسود كاشف

131 – ابن عذارى المصدر السابق ، ج 4 ، ص 7.

132 – ابن حيان المقتبس ، ج 5 ، ص 176.

133 – انظر ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، تحقيق بروفنسال ، رباط الفتح 1934، ص 34 ، ابن عذارى المصدر السابق ، ج 2 ،231 ، المقري النفح ، ج 1 ، ص 568.

134 – المقري ،المصدر السابق ، ج 1 ، ص 386.

135 – ابن حيان ، المقتبس ، قطعة الحجي ، 86 – 87.

136 – المقري ،المصدر السابق ، ج 3 ، ص 571.

137 – المصدر السابق ، ق 4 ، م 2 ، ص 610 .

138 – المصدر السابق ، ص 102 .

احد الثقاة "ودله على باب التجر وحضه عليه .. ثم دعاه فاودعه خمسة آلاف دينار وقال له حركها واتجر بها ".ولم يتردد الامراء والخلفاء والملوك على التدخل في شؤون التجارة والتجار بالاغرام والمصادرة [139] او بالحجر والحكر على بعض السلع[140] وهو السلوك الذي طالما اثار تحفظ المهتمين بآداب السياسة والاحكام السلطانية ، الذين افصحوا في اكثر من مناسبة عن مكامن خطورته على مجمل الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية .

وفضلا عن هؤلاء الوكلاء ،تكشف كتب التراجم عن دور التجارة والتكسب في تقلد أعلى الخطط والمناصب . فالحبيب احمد بن محمد بن زياد اللخمي على سبيل المثال كان "فقيرا في مبتدأ امره لا مال له"[141] ثم غدا من كبار التجار ، مما فسح له المجال للترقي لاحقا في حلبة الدواوين وتقلد خطة القضاء .وبالمثل ، فعندما تجرد محمد بن يبقى بن زرب الذائع الصيت لتقلد منصب قضاء الجماعة للمنصور بن ابي عامر " كشف عن مال عظيم صامت في صندوق وقال : ... وحظي من التجارة ما علمتم "[142] ازالة لما قد يثار من شبهات حول مصادر عظيم ثرواته . ويذكر الرشاطي[143] أن قاضي المرية المعروف بالشمنتاني "كان في شبيبته تاجرا ومسفرا ".مع ذلك فالعديد هم التجار الذين تورعوا عن المناصب ، وانقبضوا عن اهل الجاه ومصاحبة السلطان .ذكر ابن عبد الملك المراكشي[144] أحدهم ممن" اشتهر بالورع والصدق والصلاح والفضل والزهد التام" . ومنهم من "كان شيخا عاقلا وقورا فاضلا شديد الانقباض عن مخالطة الناس "[145] رغم كونه "من ذوي اليسار والجدة "[146] وامعانا في الزهد والورع لم يتردد احد كبار البزازين عن" ترك التجارة وقسم ماله بين بنيه واسهم الفقراء منه "[147] في حين زاوج غيره بين الاختلاف "الى المشرق

---

139 – فلقد ورد في قضاة قرطبة للخشني اغرام ورثة احد كبار التجار القرطبيين من طرف الامير، فكان ذلك، "سبب فقرهم ". انظر ص 84، ومن المتعارف عليه ان الخليفة الناصر والحاجب المنصور بن ابي عامر كانا يقاسمان عمالهم في متاجراتهم، عامة قرطبة في عصر الخلافة، منشورات عكاظ 1989، ص 128.

140 – ذكر الاصطخري على سبيل المثال ان خلفاء بني امية بالاندلس كانوا يحجرون على بيع وبر السمور انظر المصدر السابق ، ص 42.

141 – الخشني ، المصدر السابق ، ص107.

142 – النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، منشوات دار الافاق بيروت 1980 ، ص 77.

143 – ابو محمد الرشاطي وابن الخراط الاشبيلي ، الاندلس في اقتباس الانوار وفي اختصار اقتباس الانوار ، تحقيق ايميليو مولينا وبوشن فيلا مدريد 1990 ، ص 86.

144 – الذيل والتكملة ، س 6 ، 282.

145 – نفس المصدر والقسم 341.

146 – نفس المصدر والصفحة.

147 – ابن الابار التكملة ، 303 .

تاجرا "[148] وبين "الجهاد والرباط ".[149]

حقيقة أن معظم التجار الذين كانوا يترددون علي الآفاق البعيدة ، اشتهروا كما سلف الذكر ، بعظيم يسارهم ، مع ذلك هناك من كان التعيش أقصى مبتغاه من الرحلة والاغتراب . ففضلا عمن كان " معاشه من التجارة "[150] ومن كان "يعيش من بضاعة له يديرها في تجارة "[151] محدودة الربح ، يذكر ابن عبد الملك المراكشي[152] احدهم ممن كان " شديد الاحتياط والتحرز" خوفا من الافتقار . ويؤكد ابن بشكوال في نص دال عن موقع هذه الشريحة الوسط ،فوق مستوى باعة الاسواق من عوام التجار ، ودون كبار التجار والوكلاء ، اذ يقول متحدثا عن أحدهم: "كان معاشه من ثياب كان يبتاعها ببجانة ويقصرها ويحملها الى قرطبة فتباع له ويبتاع من ثمنها ما يصلح ببجانة ".[153]

ويصرف النظر عن قيمة ماتتضمنه التراجم الاندلسية من معلومات عن وضعية المسالك والطرق والمنازل البحرية والبرية [154] واهميتها في تحقيق واستكمال ما تقدمه كتب المسالك والممالك الجغرافية بهذا الخصوص ، فالجدير بالملاحظة انها تقدم معلومات غاية في الاهمية ان لم تكن احيانا فريدة بخصوص التفاعل الحضاري بين الامم والشعوب . فبالاضافة للإشارات المتعلقة بتميز" زي التجار"[155] عن غيرهم ، والمعلومات المرتبطة بانتقال غراسة الرمان السفري[156] من الشام الى الاندلس ، والتين الدنقال [157] الذي استجلبه يحيى الغزال من القسطنطينية ،سلفت الاشارة الى تبادل الرحلات الطبية بين الاندلس والهند ، فضلا عن النص الهام الكاشف عن تبادل الخبرات بين الصين والاندلس في مجال الحرف النسيجية .

---

148 – نفسه ، 305 .

149 – نفس المصدر والصفحة .

150 – ابن بشكوال ،المصدر السابق ، ج 1 ، ص 348 .

151 – ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ، س 5 ، ق 1 ، ص 120.

152 – نفس المصدر والقسم ، ص 141 .

153 – ابن بشكوال ، الصلة ج 1 ، ص 311 .

154 – انظر على سبيل المثال ، الضبي المصدر السابق ، 82 ، 248 ، 350 ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ، س 1 ، ق 2 ، 433 – 545 ، س 5 ، ق 2 ، 647 .

155 – ابن بسام الذخيرة ، ق 4 ، م 1 ، 88 .

156 – الخشني المصدر السابق ، ص 17 .

157 – ابو الخير الاندلسي ، كتاب الفلاحة ، نشر القاضي التهامي الناصري ، فاس 1357 هـ ، ص 111 .

ومن جهة اخرى ، تكشف الرحلة التجارية عن الدور الفعال الذي لعبه هذا النشاط على مستوى التواصل اللغوي ، وهو مجال مازال بحاجة الى كثير من العناية من جانب البحث اللغوي المعاصر . فمن التجار من" ساح في الارض ودخل بلاد العجم وغيرها من البلاد البعيدة وكان يتكلم بألسنة شتى"[158] لم يقتصر دور التجار والرحلة التجارية على مد جسور التواصل بين الامم ، بل تجاوزه الى تعميق تأثير الحضارة العربية الاسلامية لدى الامم المجاورة ،ومد اشعاعها بعيدا نحو هوامش العالم خلال العصر الوسيط [159] ولعل في تجرد بعض الفلاسفة الاندلسيين لإقراء وتعليم "الامم بالسنتهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلمها"[160] مايكشف عن البعد العالمي والانساني الذي تمكنت الثقافة العربية الاسلامية من صياغة وترسيخ أسسه أيام العطاءات الكبرى خلال العصر الوسيط الذهبي .

صفوة القول ، أن الاستقصاء الواسع النطاق للتراجم الاندلسية المبثوثة في مصادرها الاصلية ، والمتناثرة في مظانها المختلفة ، كفيل بفتح نوافذ جديدة أمام البحث في التاريخ الاقتصادي الاسلامي الوسيط ، وفي دور التجارة والتجار .

---

158 – المقري ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 243.

159 – كما يستفاد من احدى النصوص الهامة والبالغة المعنى لجغرافي مجهول من اهل القرن الثالث ، اذ قال متحدثا عن رحلات التجار المسلمين في المحيط الهندي ، ونحو الشرق الاقصى :" ثم تخطف المراكب الى بحر هركند ، فاذا جاوزوه صاروا الى موضع يقال له لنجبالوس ،لا يفهمون لغة العرب ولا ما يعرفه التجار من اللغات .." بقدر ما يكشف هذا النص على الدور الذي لعبته اللغة العربية كلغة للتواصل على الصعيد العالمي بقدر ما يؤكد على دور التجار في التواصل الحضاري بين الشعوب والاجناس المختلفة ، كتاب اخبار الهند والصين ، نشر سوفاجيه 1948 .

160 – المقري النفح ج 4 ، ص 131 .

لائحة المصادر

1- ابن الابار : التكملة لكتاب الصلة : تحقيق السيد عزت العطار الحسيني : القاهرة 1956.

2 - ابن بسام : الذخيرة : تحقيق احسان عباس : الدار العربية للكتاب : ليبيا تونس : 1981.

3 - ابن بشكوال : الصلة : الدار المصرية للتاليف والترجمة : القاهرة 1966.

4 - ابن حزم : الفصل في الملل والاهواء والنحل : تحقيق محمد ابراهيم نصر/ عبد الرحمن عميرة : دار الجيل : بيروت 1985.

5 - ابن حيان : المقتبس

أ - قطعة شالميتا /كوزينطي /صبح : المعهد الاسباني العربي للثقافة : مدريد 1979.

ب- قطعة عبد الرحمن الحجي : بيروت 1965.

6 - ابن خرذاذبه : المسالك والممالك :نشر دي خويه : مطبعة بريل : الطبعة الثانية:ليدن 1967.

7 - ابن الخطيب

أ - أعمال الاعلام : تحقيق ليفي بروفنسال : رباط الفتح 1934.

ب- الاحاطة في اخبار غرناطة : تحقيق محمد عبد الله عنان : الطبعة الثانية : مكتبة الخانجي : القاهرة 1973.

8 - ابن خير : الفهرسة : تحقيق كوديرا /خوليان ريبرا : مكتبة الخانجي : القاهرة 1963.

9 - ابن رضوان : الشهب اللامعة في السياسة النافعة : تحقيق علي سامي النشار : دار الثقافة : البيضاء 1984.

10- ابن سعيد.

أ - المغرب في حلى المغرب : تحقيق شوقي ضيف : دار المعارف : القاهرة 1978.

ب - كتاب الجغرافيا : تحقيق اسماعيل العربي: المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت 1970.

11- ابن عبد البر النمري : القصد والامم في التعريف باصول انساب العرب والعجم : تحقيق : ابراهيم الابياري : دار الكتاب العربي : بيروت : 1985.
12- ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة.
أ- السفر الرابع : تحقيق احسان عباس.
ب- السفر الخامس : القسمين الاول والثاني : تحقيق احسان عباس دار الثقافة بيروت.
ج- السفر السادس : تحقيق احسان عباس دارالثقافة بيروت الطبعة الاولى :1973.
13- ابن عذاري : البيان المغرب : تحقيق بروفنسال / كولان : بيروت 1980.
14- ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس : الدار المصرية للتاليف والترجمة : القاهرة 1966.
15- ابو حامد الغرناطي : تحفة الالباب : تحقيق غابرييل فيران : باريس 1925.
16- ابو محمد الرشاطي وابن الخراط : الأندلس في اقتباس الانوار وفي اختصار اقتباس الانوار : تحقيق اميليو مولبنا / بوش فيلا : مدريد 1990.
17- ابو الخير الاشبيلي : كتاب الفلاحة : نشر القاضي التهامي الناصري : فاس 1357 هـ .
18- الاسنوي : طبقات الشافعية : تحقيق عبد الله الجبوري : دار العلوم للطباعة والنشر، المملكة العربية السعودية : الرياض 1981.
19- البكري
أ- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب : نشر دي سلان : باريس 1965.
ب- جغرافية الاندلس واوربا من كتاب المسالك والممالك : تحقيق عبد الرحمن الحجي دار الارشاد : بيروت 1968.
20 - الحميدي : جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس : الدار المصرية للتاليف والترجمة : القاهرة 1966.
21 - الخشني : قضاة قرطبة : الدار المصرية للتاليف والترجمة : القاهرة 1966.
22 - الزهري (ابو عبد الله) : كتاب الجغرافية : تحقيق محمد حاج صادق : المركز الاسلامي للطباعة : الجيزة : بدون تاريخ.
23 - الزيات (اسحاق بن الزيات) : ذكر الاقاليم : تحقيق فرانسيسكوكا ستيلو : المجلس الاعلى للابحاث العلمية: معهد ميلاس فاليكروسا للتاريخ والعلوم العربية : برشلونة 1989.
24 - الاصطخري : المسالك والممالك : نشردي خويه :ليدن 1927.
25 - الضبي : بغية الملتمس :دار الكتاب العربي : القاهرة 1967.

26 - العذري : ترصيع الاخبار وتنويع الآثار: تحقيق عبد العزيز الاهواني : منشورات معهد الدراسات الاسلامية : مدريد 1965.

27 - القاضي عياض.

أ- ترتيب المدارك : منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية الرباط.

ب - الغنية : تحقيق ماهر زهير جرار : دار الغرب الاسلامي : بيروت 1982.

28 - القفطي : كتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء : دار الاثار : بيروت : بدون تاريخ.

29 - المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم : نشر دي خويه ليدن 1907.

30 - المقري : نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب : تحقيق احسان عباس : دار صادر بيروت 1968.

31 - النباهي : تاريخ قضاة الاندلس : دار الافاق الجديدة : بيروت 1980.

32 - ياقوت الحموي : معجم البلدان : دار صادر بيروت 1979.

33 - احمد الطاهري : عامة قرطبة في عصر الخلافة : دار عكاظ : الرباط 1989.

قرطبة في عصر الخلافة

النموذج الأمثل للنمو الحضري بالغرب الإسلامي

نشر هذا العمل ضمن أشغال ندوة : المدينة في تاريخ المغرب العربي : منشورات كلية الآداب ابن مسيك :
الدار البيضاء 1988 : صفحات 126 - 134 .

ان في استقراء تاريخ المدن بالغرب الاسلامي الوسيط ما يفصح عن مكانة قرطبة باعتبارها الحاضرة الكبرى التي تقدم الحقل النموذجي لمعاينة بعض العناصر الدالة على طبيعة ودور وخصائص المدينة المغربية الوسيطة وهي في أعلى درجات اكتمالها. ولعل في ذلك ما يساعد على مراجعة التصورات الشائعة حول حدود النمو الحضري بمجتمعات العصر الوسيط ، وما يحفز على التدقيق في طبيعة البنيات الاقتصادية التي تحكمت في افراز مدن بضخامة قرطبة.

وباستعراض تاريخ هذه المنطقة من دار الاسلام ،تتضح اهمية القرن الرابع الهجري في توفيرعوامل الدفع بالنمو الحضري الى اقصى مستويات تطوره . ولعل في انهيار هذا النموذج مباشرة بعد هذا العصر ، وفي تراجع وخراب قرطبة ، ما يكشف عن بعض مواطن الخلل ، وعن إحدى حلقات التأرجح بين التالق والأفول الذي لازم التمدن ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط.

حقيقة ان بلاد المغرب قد شهدت انتعاشا مدنيا واسعا خلال القرن الثاني الهجري ، تجلت معالمه في تطور بنيات المدن القائمة ، وفي بروز عدد من المدن الجديدةالتي ما فتئت تزداد اتساعا وحيوية مثل نكور ، سجلماسة ، تيهرت ، فاس ، الا أن الظروف العامة خلال هذا القرن لم تكن في مستوى افراز تجمعات حضرية بضخامة وأهمية قرطبة في عصر الخلافة. وبالمقابل، ففضلا عما تحقق خلال القرن الرابع الهجري من وحدة سياسية في ظل الخلافة الاموية ، تعززت سطوةالسلطة المركزية واحكمت الهيمنة على المسالك البرية عبر العدوة المغربية الى بلاد السودان وعبر الابواب الى الارض الكبيرة [1] وتمتينا لذلك ، تم تدعيم نفوذ الخلافة في الحوض الغربي للبحر المتوسط فاحكم الناصر" شأنه وأمن السفن المختلفة فيه ، وغلب بذلك على الساحل كله " على حد تعبير المؤرخ

1 - الارض الكبيرة هو المصطلح الذي كان يطلق على بلاد اروبا فيما وراء جبال البرانس ، والابواب هي المسالك اليها عبر هذه الجبال.

ابن حيان[2] وبالمثل أحكمت الرقابة على الملاحة في المحيط الاطلسي ، من سواحل جليقية" إلى السوس الاقصى وهو آخر ماتبلغ إليه مراكب البحر من الاندلس "[3] ولقد تظافرت الجهود الدبلوماسية - التي نجحت في جر العديد من الامم والممالك الى الاخذ بسياسة الوفاق. مع هذه المنجزات لتوفير المناخ الملائم لازدهار تجاري ومديني واسعي النطاق .

ومن المؤشرات التي تثير الانتباه الى هذا النموذج اندفاع المجال الحضري خارج أسوار المدينة المركزية النواة ليشغل مساحات شاسعة جدا بالنسبة لما هو معروف عن مدن العصور الوسطى . فقرطبة لم تكن عند الفتح الاسلامي سوى مدينة صغيرة يحيط بها سور حصين[4] واستمرت بعدئذ "في الزيادة منذ الفتح الاسلامي إلى سنة أربعمائة "[5] وتكشف مختلف القرائن على أنها لم تتحول إلى ظاهرة مدينية حقيقية إلا في عصر الخلافة ، إلى درجة أن العمارة اتصلت بين قرطبة والزهراء على طول عشرة أميال، حسب تاكيدات ابن حوقل[6] ولقد بلغت المدينة من الاتساع أن قدر مدارها الحضري بحوالي " ثلاثة وعشرين ميلا "[7] والذي احتضن الى جانب المدينة المركزية القديمة[8] واحدا وعشرين ربضا حسب تحديد ابن بشكوال[9] كل ربض منها اعتبر من طرف غيره[10] من المؤرخين الاندلسيين أكبر وأشسع من بقية المدن الاندلسية . وخلال هذا العصر

2 - المقتبس في تاريخ الاندلس : قطعة شالميتا / كورينطي / صبح ، المعهد الاسباني العربي للثقافة ،مدريد 1979 ، ص 88.

3 - ابن عبد البر النمري ، القصد والامم في التعريف باصول انساب العرب والعجم ، القاهرة 1350 هـ ، ص24 ، انظر كذلك الاصطخري ، المسالك والممالك ، ليدن 1927 ، ص 39.

4 - مجهول ، اخبار مجموعة ، مخطوط المكتبة الوطنية مدريد رقم 4995 ، ورقة 5.

5 - المقري ، نفح الطيب : طبعة بيروت 1968 ، ج 1 ، ص 458.

6 - صورة الارض ، بيروت 1979 ، ص 107.

7 - هناك روايات اخرى تقدم ارقاما مغايرة ، انظر بهذا الصدد : ابن الخطيب ، اعمال الاعلام نشر بروفنسال ، رباط الفتح 1934 ، ص 121 . القزويني ، اثار البلاد واخبار العباد ، بيروت 1960 ص 552 . ابن غالب : فرحة الانفس : مجلة معهد المخطوطات العربية : م1 : القاهرة 1955 ، ص 296 . المقري : المرجع السابق، ج 1 ص 466.

8 - التي قدر طول سورها بحوالي "ثلاثة وثلاثين الف ذراع" انظر المقري ، نفسه : 45 ، وهو السور الذي دار حوله ابن حوقل عند زيارته لقرطبة سنة 350 هـ " غير يوم قد ساعة " : المرجع السابق : ص 107.

9 - بينما يحددها صاحب البيان في ثمانية وعشرون ربضا ، باضافة الزهراء والزاهرة اللتين اسقطهما ابن بشكوال ،كمادخل القصبة المركزية في الحساب باعتبارها ربضين وليس ربضا واحدا ، ابن عذاري ، البيان المغرب ، بيروت 1980 : ج 2 ، 232 ، انظر كذلك المقري : المرجع السابق : ج 1 ، 465 - 66.

10 - ابن الخطيب ، المرجع السابق ، ص 120.

أسست المدينتان الملكيتان الزهراء والزاهرة ، بالاحواز المباشرة للعاصمة لتنضافا الى هذا التجمع الحضري الضخم.

اتسعت دائرة النمو العمراني لتشمل كل الأعمال التابعة لقرطبة [11] يتجلى ذلك في إعادة تعمير القرى التى خربت خلال العصر السابق ،بل وكذلك في بروز عدد كبير من القرى الجديدة[12] بلغت في مجملها حسب بعض الروايات[13] " ثلاثة آلاف قرية "بما يكشف -رغم ماتحمله هذه الارقام من مبالغات - عن عمق التأثير الذي مارسته قرطبة في اتجاه تمدين باديتها.بمعنى أننا أمام حاضرة عظمى اتخذت شكل منطقة مدينية حقيقية . مع العلم أن بنيات مجتمعات العصور الوسطى - في حدود ماهو متداول من معلومات حولها - تعجز عن إفراز مثل هذه الظاهرة .

على المستوى الديموغرافي ، تقدم المصادر العربية العديد من القرائن المدعمة للحقائق السابقة ، والمؤكدة على خصوصية هذه الظاهرة المدينية الكبرى. نذكر منها على سبيل المثال كثرة ما أوردتة كتب النوازل الفقهية [14] من قضايا الجوار ومشاكل التكدس السكني المعروضة على أنظار المحاكم القرطبية ، واضطرار الخليفة الناصر الى تثليث خطة الشرطة [15] حتى تستجيب للمتطلبات الامنية الجديدة ، فضلا عن روايات الجغرافيين[16] المؤكدة على تفوق سكان قرطبة عن غير ها من حواضر دار الاسلام بالمشرق والمغرب على السواء. وهي القرائن التي اربكت الدارسين فتارجحوا بين الانسياق وراء محتوياتها[17] وغض الطرف عن

---

11 - يقدم كل من المقدسي في كتابه احسن التقاسيم ليدن ، 1906 ص 222 - 23 وابن غالب في المرجع السابق ص 306 والمقري في النفح ، ج 1 ، ص 165 تفاصيل هامة عن هذه الاعمال ببادية قرطبة.

12 - نجد اسماء بعض هذه القرى في ثنايا مصادر متنوعة ، نذكر منها على سبيل المثال قرى بشكلار، جالطة ، رمية، وزغة ، كرتش .

13 - المقري ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 458 .

14 - انظر ابن سهل النوازل ، مخطوط المكتبة العامة بالرباط قم د 1728.

15 - ابن حيان ، المرجع السابق ، ص 252.

16 - ابن حوقل ، المرجع السابق ، ص 107.

17 - فشكيب ارسلان يبالغ في تضخيم عدد سكان العاصمة الاموية في الاندلس بجعلهم مليوني نسمة،انظر الحلل السندسية : القاهرة 1936 م ، ج 1 ، ص 41 في حين لا يتجاوز المليون حسب سعيد عبد الفتاح عاشور، الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، عالم الفكر ، م 11 ، ع1 يونيه 1980 ، ص 87 وتتفق اغلبية الدارسين على تحديد قرطبة في نصف مليون نسمة.

E.CH.Dufourcq : la vie quotidienne dans l'Europe Médievale sous domination arabe ; 1978 p: 241.

Levi Provençal :Espagne musulmane au Xé siècle Paris 1932 P232.

- محمد عبد الله عنان، الدولة العامرية ، القاهرة 1958 ، ص 407.

- موريس لومبار، الاسلام في عظمته الاولى : ترجمة ياسين الحافظ ، بيروت 1977 : ص 130.

مضامينها[18] للتمسك بما هو شائع من آراء حول الحدود التي لايمكن أن تتجاوزها مدينة تنتمي للعصر الوسيط علما بأن المدن المليونية ظاهرة خاصة بالعصر الحديث رافقت التحول الرأسمالي والثورة الصناعية.إلا أن في حفاظ المصادر القديمة على نتائج دقيقة لعمليتين احصائيتين جرتا خلال عصر الخلافة، ما يشجع على تصديق القرائن السابقة .يقول المقري[19] "وأحصيت دور قرطبة التي بها وأرباضها أيام ابن ابي عامر ، فكان مائتي ألف دارو ثلاثة عشر ألف دار وسبعين دارا وهذه دور الرعية أما دور الأكابر والوزراء والكتاب والأجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلاثمائة دار "،واضح بأن عدد الدور يفوق الرقم الذى قدمه بلباس لمجموع سكان قرطبة . ومهما قللنا من معدل أفراد الاسرة القاطنين بالمسكن الواحد ، نحصل على نتائج تفوق بكثير ما تم الاجماع عليه من طرف الاغلبية . وفي نفس الموضوع ذكر ابن حيان[20] أن عدد دور" الرعايا والسواد الواجب على أهلها المبيت في السور أيام الفتنة مائة ألف دارحاشا دور الوزراء وأكابر الدولة" . إن مقارنة بسيطة بين العمليتين الاحصائيتين تدفع الى الشك في نتائجهما ، هكذا يبدو الامر لأول وهلة ،لكن الحقيقة عكس ذلك تماما فالاحصاء الثاني يؤكد نتائج الاول علما بان قرطبة قد تعرضت فيما بين الاحصاء ين لعملية تخريب واسعة النطاق عمرانيا وديموغرافيا.

وفي رصد أولي لبعض العناصر الكاشفة عن مكوناتها الاجتماعية ، مايدل على أن قرطبة لم تكن من نوع المدن الوسيطية التي جرى تركيبها فوق البنية الاقتصادية الحقيقية للبلاد . فعلى الرغم من كونها المركز الرئيسي لخاصة الدولة بجميع شرائحها ، ولاصحاب الخطط الادارية والعسكرية ، باعتبارها عاصمة للخلافة ،فالاحصائيات السالفة تؤكد على احتضانها لاكبر تجمع لسواد الناس والعامة ليس في الاندلس فحسب ، بل بمجموع الغرب الاسلامي إن لم نقل بدار الاسلام فهم حسب البيان[21] "خلق لا يحصيهم إلا خالقهم "وتحدث عنهم غيره باعتبارهم" سيولا من السفلة والغوغاء"[22] في حين تقدم مصادر أخرى متنوعة معلومات أدق عن شرائحهم المختلفة ولعل في تفجيرهم لاحدى أكبر الثورات المدينية في تاريخ الاسلام[23] مايفصح عن تعاظم دورهم على المستويين الاجتماعي والسياسي.

---

18 – Loepoldo T. Balbas : cuidades hispano musulmanas : T1: p 104.

وكذلك السيد عبد العزيز سالم قرطبة حاضرة الخلافة بيروت 1971 ج 1 ، ص 181.

19 – المرجع السابق ، ج 1 ، ص 541.

20– انظر ابن غالب ، المرجع السابق ، ص 296.

21 – المرجع السابق ، ج 2 ، ص 222.

22 – ابن الخطيب ،المرجع السابق ، 127، انظر كذلك البيان المغرب ، ج 3 ، ص 55 – 56.

23 – عن هذه الثورة انظر : احمد الطاهري ، ثورة العامة بقرطبة في عصر الخلافة مجلة البحث العلمي ' عدد 36 ، 1986.

وبالتدقيق في المنشآت التجارية بهذه الحاضرة ، مايؤكد على أنها لم تكن مجرد مؤسسة طفيلية تعيش على حساب ايرادات الدولة على الرغم مما تقدمه المصادر الاندلسية من معلومات مستفيضة عن الاهراء الضخمة التي أقيمت بقرطبة وبالزهراء والزاهرة لخزن الجبايات العينية ، وعلى الرغم من كثرة الاموال والجبايات النقدية التي كانت تملأ بيوت المال بالعاصمة[24] وتعتبر" السوق الكبرى بقرطبة "[25] الحلقة المركزية في هذا النشاط فاليها كانت تنتهي عبر" الطريق السالك بجوف"[26] المدينة شرايين المواصلات القادمة من مختلف الاتجاهات[27] ولقد تدخلت الدولة أكثر من مرة لتوسيع هذه السوق[28] والطرق المفضية إليها[29] حتى تستجيب للتزايد المضطرد في كثافة المبادلات . كما استحدثت أسواق موازية في كل ربض من أرباض المدينة[30] وبالمثل في كل من الزهراء[31] والزاهرة[32] للتمكن من مواكبة النموالحضري والديمغرافي.بل وامتد النشاط التجاري إلى الحارات والاحياء التي شهدت بروز أسواق محلية صغيرة عرفت في المصادر الاندلسية باسم السويقات[33] كما انتشرت الحوانيت بالأزقة والدروب لمعالجة تجارة التقسيط . حتى بلغ عددها الاجمالي حسب رواية المقري[34] "ثمانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسين "حانوتا. وإمعانا في تنظيم الحركة التجارية ، استحدثت أسواق متخصصة في الاتجار بصنف محدد من السلع.[35]

---

24 - انظر التفاصيل لدى ، ابن غالب ، المرجع السابق ، 295 ، المقري ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 459 ، ابن عذاري ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص 276 وكذلك لدى ابن حوقل ، المرجع السابق ، ص 107.

25 - ابن حيان ، المرجع السابق ، قطعة الحجي ، ص 212.

26 - ابن بشكوال ،الصلة في اخبار أئمة الاندلس ، القاهرة 1955 ، ج 1 ، ص 300.

27 - يمكن الوقوف على خريطة شبكة المواصلات بالاندلس ، التي تبين مكانة قرطبة كملتقى ومفترق لاهم الشرايين التي تربط مركز الاندلس بمختلف النواحي ، وبالموانئ الساحلية ومنها الى مختلف مناطق المعمور، وذلك عن طريق مقابلة المعلومات التي تقدمها كتب المسالك والممالك الجغرافية واستغلال الاضافات المفيدة في مصادر تاريخية متنوعة

28 - انظرابن حيان ،المرجع السابق ، قطعة الحجي ، ص 66.

29 - نفسه ، ص 71.

30 - انظر كل من المقري المرجع السابق ، ج 1 ، 458 ، والادريسي نقلا عن شكيب ارسلان المرجع السابق :ج 1، ص 136.

31 - ابن حوقل ، المرجع السابق ، ص 107.

32 - ابن عذاري ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص 276.

33 - انظر اسماء بعضها لدى ابن بسام ،الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة بيروت 1978 ، ق 4 ، م 1 ، 239 ، لدى ابن حزم ،جمهرة انساب العرب ، نشر بروفنسال : القاهرة 1948: 97.

34 - المرجع السابق ، ج 1 :541.

35 - عن هذه الاسواق انظر ابن بسام، المرجع السابق، ق 3 ، م 1 : 526، ابن عذاري، المرجع السابق، =

لم يقتصر دور قرطبة التجاري إذا على توفير السلع الضرورية لاستهلاك خاصة الدولة الذين مافتئوا يزدادون ثراء وعلى ترويج المنتوجات الفاخرة جلبا وتسويقا ، بل والاهم من ذلك ضمان التبادل فيما بين مختلف المناطق والمدن الاندلسية ،وفيما بين الحاضرة والبادية . وتدريجيا فرضت قرطبة دورها كمحطة أساسية في المبادلات العالمية بين دار الحرب ودار الاسلام ، وفيما بين المشرق والمغرب الاسلاميين ،وفيما بين الاندلس وبلاد السودان .والجدير بالملاحظة أن الكثير من السلع المتبادلة على كافة هذه المستويات كانت موجهة لتلبية الحاجيات الغذائية . فلقد تحدث السقطي[36] عن "الميارة الذين يبتاعون القمح ويسوقونه على دوابهم ويطحنونه بالارحي ويجلبونه" . ومما يؤكد أهمية السوق الاستهلاكية بداخل العاصمة ، ويدعم الحقائق الديمغرافية السالفة الذكر قول ابن غالب[37] بأن قرطبة كانت تستقبل "على سائر طرقها أيام اكتمالها من جلائب الغنم في كل يوم من أيام درور الجلائب وهي معلومة مابين سبعين ألف رأس إلى مائة ألف رأس حاشا البقر" ، وليس أدل على مدى أهمية السوق الاستهلاكية القرطبية مما كان يباع بها "من أنواع السمك المملوح وغيره في كل يوم على اختلاف أجناسه أيام جريانه بعشرين ألف دينار قاسمية"[38] ولاتقل السلع والمواد الموجهة لتلبية حاجيات الحرف والاصناف الصناعية أهمية، فلقد "أحب المنصور أن يتعرف مقدار مايدخل قرطبة من جهاتها من أحمال الحطب في اليوم الواحد من أيام درورها للاحتكار فوكل باحصاء ذلك عدة من ثقاتة فعدوا له راصدين بسائر طرق قرطبة وأنقابها وكتب كل واحد منهم ما أحصاه ورفعوا جميعه فانتهى الى ستة الاف حمل وستمائة حمل على اختلافها "[39] بما يكشف عن مدى ارتباط القطاعات المنتجة القرطبية بالبادية الاندلسية. بمعنى أن قرطبة أسندت لها مهمة الحلقة المركزية في بنية اقتصادية جديدة تجاوزت بكثير الانغلاق المعروف في مجتمعات العصور الوسطى. وهو ماعبر عنه أحد الاندلسيين بقوله : "إنها من الاندلس، بمنزلة الرأس من الجسد".[40]

بديهي أن تتسع الخدمات المدنية وتتشعب بالموازاة مع هذا النمو وتسهيلا لمأمورية التجار الوافدين على المدينة . فمن الخانات والحمامات التي بلغت حسب المقري[41] "سبعمائة حمام "الى

= ج3،: 103. ابن حيان ، المرجع السابق قطعة شالميتا : 444. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب : طبعة القاهرة ج 1، 180 ، الزجالي ، أمثال العوام في الاندلس تحقيق بنشريفة ، ص 103.

36 – في اداب الحسبة : نشر بروفنسال : الرباط 1931 : ص 24.

37 – المرجع السابق : 296.

38 – نفس المصدر والصفحة .

39 – ابن الخطيب :المرجع السابق : 121.

40 – انظر المقري : المرجع السابق : ج 1 : 157.

41 – نفسه ج 1 : 540.

الفنادق ومصاري الكراء والمطاعم والمرافق المختلفة .فضلا عن المجهودات الحضارية الجبارة التي بذلت لتوفير الحاجيات المدنية الضرورية ،فلقد تحدث الرازي[42] على سبيل المثال" عن المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة... في قنوات الرصاص" وتحدث غيره[43] عن قنوات تصريف المياه المستعملة ،وهكذا دواليك .والجدير بالملاحظة أن الخدمات التجارية لم تنحصر داخل المدار الحضري للعاصمة ، بل انتشرت على طول المسالك المؤدية إليها بعيدا في عمق البوادي ، فحيثما سار المسافر والتاجر " يجد الحوانيت في الفلوات والشعاري والاودية ورؤوس الجبال لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك "[44] بما يكشف عن فعالية التجارة في ربط البوادي بالنمو الحضري.

لم يقتصر دور قرطبة على تنشيط المبادلات ، بل تحولت إلى أكبر منطقة للانتاج الصناعي الحرفي ، الذي مافتىء يزداد هو الآخر تنوعا وتطورا. وعلى غرار الوحدات التسويقية ،انتشرت الصناعات خارج السوق المركزي لتشمل بقية الارباض[45] ولقد أفردت لكل صنعة دروبا وأسواقا خاصة بها .فـفضلا عن الاشارات الواردة في بعض المصادر عن " سوق الحدادين "[46] وسوق الخشابين[47] "وحوانيت السراجين بسوق قرطبة "[48] تحدث ابن بشكوال عن أفران الزجاجين[49] وموضع الفخارين[50] وموضع أصحاب الغرابيل بالسوق[51] وفي مصادر أخرى متنوعة[52] مايكشف عن مواقع غيرها من الصناعات.

كثيرة هي القرائن الكاشفة عن تزايد اعتماد العديد من الحرف الصناعية على الخامات المعدنية. فبالاضافة للمعلومات التي تقدمها كتب الفلاحة [53] عن أهمية الحديد في صناعة الالات

---

42 – Razi : Description de l'Espagne : Al-Andalus 1953-XVIII : p 65

43 – ابن سهل : المصدر السابق ، 94.

44 – المقري ، المرجع السابق ، ج 1 : 226.

45 – انظر الادريسي، نقلا عن شكيب ارسلان ، المرجع السابق ج 1 : 136.

46 – ابن حيان : المرجع السابق قطعة شالميتا : 444.

47 – ابن عذاري : المرجع السابق : ج 3 : 103.

48 – ابن حيان : المرجع السابق : قطعة الحجي : ص 207.

49 – المرجع السابق : ج 1 : 173.

50 – نفسه : 300.

51 – نفسه : ج 2 : 477.

52 – انظر ابن حيان : المرجع السابق : قطعة شالميتا : 383 ، ابن سعيد ،المغرب في حلى المغرب : القاهرة ج1: 180 .

53 – انظر ابو الخير الاندلسي : كتاب الفلاحة : فاس 1357 هـ : 118.

الفلاحية. يتحدث أندلسي مجهول[54] عن وجود مصانع خاصة "بسبك الحديد" وعن أهمية هذه المادة في" صناعة منسج الحياكة "[55] في حين تمكننا الكتب الجغرافية من معاينة المجهود الجبار الذي بذل خلال عصر الخلافة في مجال الاستخراج المعدني ، بما يساعد على وضع خريطة تقريبية للمناجم الاندلسية. ويقدم الادريسي[56] بخصوص إحدى هذه المناجم تفاصيل محددة لحجم اليد العاملة، ومعرفة بالتقنيات ووسائل الاستخراج المستعملة وبالقيمة التسويقية للمعدن .إن ارتباط معظم الاصناف الصناعية القرطبية في تموينها بمواد خام فلاحية ومعدنية مستجلبة من مختلف المناطق الاندلسية يجعلها مرهونة باستمرار وحدة البلاد ورسوخ المركزية السياسية.

والجدير بالملاحظة أن العديد من الصناعات القرطبية ارتبطت في تسويق منتوجاتها بمناطق بعيدة فـ "الفخار المذهب العجيب يجلب منها إلى أقاصي البلاد "[57] بينما أصبح "الكاغد الذي لايوجد له نظير بمعمور الارض يعم المشارق والمغارب"[58] وبالمثل كانت الاردية الاندلسية " تحمل إلى مصر ومكة واليمن "[59] ويكشف ابن الخطيب [60] عن تنافس المنتوجات الصناعية الاندلسية مع نظيراتها المشرقية على اكتساح الأسواق الاستهلاكية بقوله : "لو تتبعنا أصنافهم وماكانوا يحاولونه من صناعاتهم ويناغون به المشرق من بضائعهم ... لضاق الكتاب ".

نخلص إلى أن جميع المؤشرات تصب في اتجاه ابراز قرطبة عصر الخلافة كتجمع حضري ضخم يفوق بكثير في حجمه وطبيعته الحدود المعهودة في النمو الحضري الوسيط مما يحفز على مراجعة التصورات الشائعة بخصوص طبيعة ودور ومميزات المدينة الاسلامية خلال العصر الوسيط.

---

54 – ورقة ضمن : ذكر مشاهير اهل فاس في القديم: مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم 1394 : 21.

55 – نفس المصدر والصفحة .

56 – المرجع السابق : ج 1 : 147.

57 – المقري : المرجع السابق : ج 1 : 152.

58 – الادريسي : المرجع السابق : ج 1 : 110.

59 – ابن حوقل : المرجع السابق : 109.

60 – المرجع السابق : 46.

لائحة المصادر

1 - ابن بسام : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة :تحقيق احسان عباس :الدار العربية للكتاب: ليبيا تونس 1981.

2 - ابن بشكوال: كتاب الصلة :الدار المصرية والترجمة : القاهرة 1966.

3 - ابن حزم :جمهرة انساب العرب : نشر ليفي بروفنسال: القاهرة 1948.

4 - ابن حوقل :صورة الارض :بيروت 1979.

5 - ابن حيان : المقتبس : نشر شالميتا /كورينطي/ صبح : العهد الاسباني العربي للثقافة : مدريد 1979.

6 - ابن الخطيب :اعمال الاعلام :نشر ليفي بروفنسال : رباط الفتح 1934.

7 - ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب : تحقيق شوقي ضيف :دار المعارف : القاهرة 1978.

8 - ابن سهل : النوازل :مخطوط المكتبة العامة الرباط رقم د 1728.

9 - ابن عبد البر النمري : القصد والامم في التعريف باصول انساب العرب والعجم: القاهرة 1350 هـ.

10 - ابن غالب :فرحة الانفس :مجلة معهد المخطوطات العربية : القاهرة 1955.

11 - ابو الخير الاندلسي : كتاب الفلاحة :نشر التهامي الناصري : فاس 1357 هـ.

12 - الرازي (احمد) : وصف الاندلس : مجلة الاندلس 1953.

13 - الزجالي : امثال العوام في الاندلس : تحقيق بنشريفة : فاس 1975-1971.

14 - السقطي : في اداب الحسبة : نشر ليفي بروفنسال : الرباط 1931.

15 - الاصطخري : المسالك والممالك : ليدن 1927.

16 - مجهول : اخبار مجموعة : مخطوط المكتبة الوطنية مدريد 4995.

17 - مجهول : ذكر مشاهير اهل فاس في القديم : مخطوط المكتبة العامة الرباط رقم د 1394.

18 - المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم : ليدن 1906

19 - المقري : نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب : تحقيق احسان عباس: بيروت 1968.

20 - احمد الطاهري : ثورة العامة بقرطبة في أواخر عصر الخلافة : مجلة البحث العلمي عدد 1986:36.

21 - شكيب أرسلان : الحلل السندسية في الاخبار والاثار الاندلسية : القاهرة 1936.

22 - عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس : بيروت 1971-1972.

23 - سعيد عبد الفتاح عاشور : الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية : مجلة عالم الفكر المجلد الحادي عشر العدد الاول 1980.

24 - محمد عبد الله عنان : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الاندلسية : الطبعة الاولى القاهرة 1958.

25 - موريس لومبار : الاسلام في عظمته الاولى : ترجمة ياسين الحافظ بيروت 1977.

26 - *Emmanuel charles dufourcq la vie dans l'europe medievale sous domination arabe Hachette 1978.*

27 - *Leopoldo Torres Balbas : ciudades hispano musulmanas : Instituo hispano arabe de cultura : Madrid (sin fecha)*

التشريع الفقهي بالأندلس

في مواكبة التطور العمراني والحضري

البحث في الأصل مساهمة في الندوة التي نظمتها كلية الآداب بفاس حول : "الأندلس : ذاكرة وآفاق".

من المتعارف عليه ان المكتبة الاندلسية تقدم بخصوص الفقه والتشريع ، ثروة غزيرة ومتنوعة. فبالاضافة لكتب الاصول والاحكام الفقهية [1] وضعت المصنفات في القضاء والمظالم والحسبة[2] وفي المسائل والوثائق والسجلات[3] بل ومن اهل القلم من عمد الى التصنيف في مواضيع فرعية اكثر دقة وتفصيلا ، نخص منها بالذكر المصنفات في احكام الجهاد[4] والسياسة[5] وفي احكام

---

1 - لقد خصصت مريا اركاس كامبوي بحثا يتوخى تقدير الحجم الحالي للادب الفقهي بالاندلس بعنوان : Arcas campoy, Maria : valoracion actual de la literatura juridica de Al Andalus, actas del II coloquio hispano marroqui. vease Maria Isabel Fierro : El deredro maliki en Al-Andalus estado de la cuestion y perspectivas Al Qantara vol XII Madrid 1991 p 119.

2 - اشتهرت بهذا الخصوص كتب الحسبة التي صنفها كل من السقطي المالقي وابن عبدون الاشبيلي . ولقد حظت منذ الثلاثينات من هذا القرن برعاية ليفي بروفنسال الذي اقدم على تحقيق ونشر النصين في نسخ بحاجة اليوم الى مزيد من التدقيق والمراجعة . ولقد صدرت مؤخرا نسخة اخرى من آداب الحسبة للسقطي ببروت 1987.

3 - نخص منها بالذكر شروط ابن العطار الذي قال فيه ابن فرحون :" كانت عارفا بالشروط املى فيه كتبا عليه عول اهل زماننا اليوم "الديباج المذهب" : ج 2 : 231 وقال عنه صاحب الجذوة : 80 : " له كتاب كبير في الشروط " . ولقد حظي كتاب الوثائق والسجلات من تاليفه بعناية شالميتا وكورينطي وصدر عن المعهد الاسباني العربي للثقافة بمدريد : 1983 ، ويوجد كتاب احمد بن مغيث الطليطلي : المقنع في علم الشروط تحت الطبع بالمجلس الاعلى للابحاث العلمية بمدريد ضمن سلسلة المصادر الاندلسية . ومن المعلوم ان عديدة" هي كتب الوثائق والسجلات التي ما زالت مخطوطة تنتظر حقها من العناية والنشر ، نخص منها بالذكر وثائق الجزيري ووثائق عبد الله بن عبد الواحد الفهري التي توجد مخطوطاتها بعدد من المكتبات الوطنية والاجنبية ، ونتعرف من خلال كتب التراجم والطبقات على عدد غيرها من المصنفات في هذا الموضوع .

4 - نخص منها بالذكر كتاب الانجاد في احكام الجهاد لابن المناصف مخطوط المكتبة العامة الرباط : رقم 748.

5- من المعروف ان هذا الصنف من الكتب مستقل بنفسه ولا يدخل ضمن الفروع الفقهية ، مع ذلك فهو =

العتق[6] والغرس[7] واحكام كراء الدور والارضين وكراء الرواحل والدواب[8] وفي حكم اصول المستغرقين[9] ولم يكن البناء والعمران ليند عن القاعدة [10] فضلا عن العدد الهائل من النوازل والفتاوى الاندلسية التي تتعلق بمختلف الأبواب الفقهيه وتثير عددا من قضايا واقع مافتئ يزداد تطورا وتداخلا ، نمو وتعقيدا[11] ناهيك عن الاحكام المختلفة المبثوثة في عديد من المصنفات الاخرى[12] مما يكشف على ان المواكبة الفقهية لضبط المستجدات وتنظيم التطورات ، كانت شاملة لمختلف المجالات.

= يتضمن فضلا عن النصائح والمواعظ والحكم وغيرها ، احكاما في السياسة تعتمد هي الاخرى ، في كثير من الحالات ، على المنهج الاصولي في الاستنباط . وعديدة هي المصنفات الاندلسية في هذا الفرع ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : بدائع السلك لابن الازرق ، والشهب اللامعة لابن رضوان ، وأدب الوزارة لابن الخطيب ، فضلا عما اصبح في حكم المفقود مثل تقصي الانباء وسياسة الرؤساء لابن الصيرفي ، وعيون الامامة ونواظر السياسة لعبد الجبار بن عبد الله القرشي المرواني .

6 - انظر فتاوى ابن رشد : ج 1 : 154 ، ومن المعلوم انه باب من الابواب الفقهية .

7 - خصص احدهم رسالة في هذا الموضوع ، مخطوط المكتبة العامة بتطوان رقم 259.

8 - هناك كتاب بهذا العنوان من تاليف عبد الله بن علي بن عبد الله كتبه عن مستخرجة العتبي من المدونة.

9- تاليف ابو زكريا يحيى بن محمد بن الوليد وهو المعروف بكتاب التقسيم والتبيين في حكم اصول المستفرقين .

10 - فمن المعروف ان ابن الامام التطيلي قد صنف في احكام البناء ،ولقد حققت بعض مصنفاته بتونس ، وتوجد اليوم في انتظار النشر انظر دراسات أندلسية العدد 8 تونس 1992 صفحات 80 - 82 . ومن المعروف ان هناك مصنفات اخرى في هذا الباب ، نذكر منها كتاب الاعلام في احكام البنيان لابن الرامي .

11 - فضلا عن الكتب المنشورة والمحققة في هذا الباب مثل فتاوي ابن رشد ، ومعيار الونشريسي ، ونوازل الشعبي المالقي ، والقطع المنشورة من نوازل ابن سهل ، فهناك كتبا غيرها لا تقل اهمية في انتظار فرصتها للنشر والتحقيق ، نخص منها نوازل ابن الحاج التي توجد مخطوطة بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم ج 55 ، ومبثوثة في عدد من كتب النوازل المتأخرة عنه . فضلا عن النص الكامل لنوازل ابن سهل الذي يوجد هو الآخر في عدد من المخطوطات بالمكتبة العامة بالرباط ، فضلا عما هو متواتر من نوازله في اكثر من مصدر لاحق .

12 - واخص هنا بالذكر الاحكام المنظمة للعمل الماجور بالبوادي الاندلسية التي تتضمنها كتب الفلاحة . انظر على سبيل المثال ، ابو الخير : كتاب الفلاحة : 9 ، عن نفس الموضوع انظر ابن عبدون : كتاب الحسبة : 246 - 47.

حقيقة ان المجهود الملحوظ الذي بذل - وبالخصوص خلال السنوات الاخيرة - على مستوى تحقيق التراث الفقهي بعدد من البلدان ، قد ساعد على اثارة الانتباه الى مدى غزارة وتنوع المادة العلمية التي يحتضنها هذا الصنف من التاليف ، مع ذلك فمعظم هذه المادة ، مازالت في انتظار دورها للحصول على مكان في دائرة الضوء . وما هو متداول منها يتطلب الانعكاف والجهد على مستوى الضبط والجمع والتصنيف والتوثيق، وبالخصوص على مستوى التأصيل التاريخي لجعله قابلا للاستغلال العلمي الدقيق.

وبالتدقيق في كتب التراجم والطبقات ،يتضح حجم ما ضاع من المصنفات الفقهية في مختلف المجالات والفروع ،مما يفصح عن مدى قصور الفكر الفقهي المعاصر على مستوى الاستيعاب . ولاغرو، ففيما بين الدراسات المتداولة وباستثناء الاهتمام الملحوظ الذي حظيت به بعض المصنفات الفقهية وبعض مشاهير فقهاء الاندلس[13] وماكتب عن المالكية والظاهرية ، مازلنا نفتقر الى دراسة شاملة ومتكاملة وموثقة عن كل صنف من أصناف الكتابة الفقهية[14] وبالأحرى تأصيل القضايا والمعطيات التي تتضمنها هذه الأصناف جميعا ، تاريخيا في اتجاه اعادة بناء العلاقة بين التشريعات والفكر الفقهي من جهة والواقع التاريخي في تطوراته المستمرة ومستجداته من جهة ثانية .

وتقدم الاندلس خلال القرنين الهجريين الرابع والخامس ،المثال النموذجي لمعاينة الفكر الفقهي في أقصى درجات اجتهاده وعطاءه ،يتدافع للبحث في مختلف النصوص السالفة عن الأسس لبناء الأحكام واصدار الفتاوي والتشريعات ، القادرة على تنظيم وتأطير واقع مافتىء يزداد نموا وتطورا وتعقيدا . مما اسفر عن انتاج غزير ومتنوع من القوانين والتشريعات ، بل وكذلك عن توفير اسس جديدة تحفز الجدال والمناظرة حول الاصول وقواعد والاستنباط.

ولم يكن التشريع الفقهي بالاندلس ليهمش قطاع البناء والعمران الحضري ، الذي اثيرت حوله خلال هذا العصر عددا من القضايا والمسائل والنوازل، واستصدرت بشأنه عدد من الفتاوي والاحكام . ويهدف هذا العمل الى ضبط بعضا من هذا النشاط في علاقته مع النمو الحضري الذي بلغ ذروته كما هومعلوم خلال هذين القرنين . واعتقد انه من شأن تصنيف المادة الفقهية موضوعيا ، واخضاعها جزئيا للمحك التاريخي ، ما يمكن من الهيمنة والتحكم في هذا التراث الضخم ، ومايوفر بالخصوص شروط الشروع في كتابة تاريخ الفقه والتشريع الاسلاميين بهذا الجناح الغربي من دار الاسلام . وهناك

13 - لمزيد من التفصيل انظر : ماريا اسابيل فييرو : الفقه المالكي بالاندلس (من القرن 2 هـ/ 8 م الى القرن 5 هـ/ 11 م).

14 - انظر : نفسه : 125.

مؤشرات كاشفة عن دور التحولات العميقة التي مست الاقتصاد والمجتمع ، الادارةونظم الحكم،الفكر والسياسة ، في الدفع بنمط الحياة بالأندلس الى الانتظام خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، في تجمعات قروية وحضرية ما فتئت تزداد كثرة وضخامة واتساعا . ومن المعلوم ان الاندلس قد اشتهرت بكثرة ما احتضنته من حواضر ، بلغت حسب البعض " نحوا من اربعين مدينة "[15] ولم يتردد احد المؤرخين عن اعتبارها" ثمانون مدينة من القواعد الكبار ، وازيد من ثلثمائة من المتوسطة.[16]

حقيقة ان معظم المدن الاندلسية ذات اصول قديمة، وهوما تؤكده ، فضلاعن المخلفات الاثرية ، عديد من النصوص العربية . ذكر ابن حوقل[17] ان "جميع مدنها قديمة ازلية لم يحدث بها في الاسلام غيرمدينة بجانة .. وشنترين "غافلا بذلك عن عدد من المدن التي انشئت منذ عصر الامارة ، نخص منها بالذكر "مرسية .. قاعدة تدمير بناها محمد بن عبد الرحمن بن الحكم"[18] و"تطيلة .. واختطت في ايام الحكم بن هشام "[19] و"طلمنكة .. اختطها محمد بن عبد الرحمن بن الحكم[20] فضلا عن" رصافة قرطبة وهي مدينة انشأها عبد الرحمن بن معاوية "[21] وغيرها. ولم تتوقف عملية اختطاط المدن الجديدة طوال عصر الخلافة ، نخص منها بالذكر ، فضلا عن مدينةالمرية التي "امر ببنائها امير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد سنة اربع واربعين وثلثمائة "[22] مدينتي الزهراء والزاهرة الشهيرتين . وخلال عصر الطوائف ، تاسست احدى اشهر المدن الاندلسية ، ويتعلق الامر بغرناطة[23] التي غدت عاصمة لمملكة بني زيري. وبالمثل ، فخلال سنة اربع واربعمائة "بنيت شنتمرية بناها الاصلع ابن رزين ".[24]

---

15 – حسب رواية المسعودي ، انظر : المقري : النفح : ج 1 : 127.

16 – نفس المصدر ، ج 1 ، ص 226.

17 – صورة الارض ، ص 110.

18 – محمد بن عبد المنعم الحميري :الروض المعطار : 539 ، انظر كذلك : ياقوت الحموي، معجم البلدان : ج 5، ص 107.

19 – قال عنها ياقوت الحموي : مدينة بالاندلس في شرقي قرطبة تتصل باعمال اشقة ، انظر : المصدر السابق : ج 2 : ص 33.

20 – محمد بن عبد المنعم الحميري : المصدر السابق ، 393 ، انظر كذلك ، ياقوت الحموي ج 4 ، ص 39.

21 – ياقوت الحموي : ج 3 ، ص 48.

22 – محمد بن عبد المنعم الحميري : المصدر السابق ، ص 537 – 38 ، انظر كذلك المقري النفح : ج 1 ، ص 162.

23 – انظر ابن بلقين ، التبيان : 20 – 21.

24 – الضبي ، بغية الملتمس ، ص 123.

والجدير بالملاحظة ان معظم المدن كانت خرابا عند الفتح الاسلامي لشبه الجزيرة. فمدينة " سالم كان طارق لما افتتح الاندلس الفاها خرابا ، فعمرت في الاسلام "[25] وبالمثل فطلبيرة" كان قد استولى عليها الخراب فاستجدها عبد الرحمن الناصر"[26] ولقد بلغ اهتمامه بالعمران الحضري ان خصص من مجموع جباية الاندلس "ثلث للبناء "[27] ولم يكن خلفه الحكم المستنصر[28] والمنصور بن ابي عامر بعده[29] اقل نفقة واهتماما بهذا الميدان . وباوراش مدينة الزهراء وحدها التي استغرق فيها العمل ماينيف عن خمسة وعشرين سنة [30] "بلغ عدة حذاق البناة بها في كل يوم ثلثمائة بناء ، وعدة حذاق النجارين مائتا نجار ، وعدة الاجراء في كل يوم خمسمائة اجير تتمة الف عامل"[31] منهم الوافدين من "المهندسين والبنائين من كل قطر . حتى من بغداد والقسطنطنية "[32] بالاضافة الى "الف واربعمائة بغل"[33] مختصة في نقل مواد البناء.

ولتلبية الحاجيات المتزايدة، نشطت بمجموع الاندلس مقاطع الرخام وغيره من مصانع واوراش مواد البناء ، نخص منها بالذكر مقطع "المنستير بسفح جبل قرطبة "[34] ومستقطع تبنشكة[35]

---

25 – ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 172.

26 – نفسه ج 4 ، ص 37 – 38.

27 – المقري النفح : ج 1 ، ص 379 وكذلك ص 524.

28 – عن بعض المنجزات المستنصرية انظر : ابن حيان : المقتبس قطعة الحجي : 66 – 71 "وقيل ان انفاق الحكم في زيادة الجامع كان مائة الف وواحد وستين الف دينار ونيفا وكله من الاخماس " انظر المقري النفح : ج 1 ، ص 547.

29 – من اهم مناقبه فضلا عن مدينة الزاهرة ، "بناؤه قنطرة على نهر قرطبة الاعظم ، ابتدأ بناءها المنصور سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة ، وفرغ منها في النصف من سنة تسع وسبعين وانتهت النفقة عليها الى مائة الف دينار واربعين الف دينار " انظر : المقري ، النفح ج 1 : 408 وكذلك ابن عذاري : البيان : ج 2 ، ص 288.

30 – قال ابن حيان : ابتدأ الناصر بناء الزهراء اول يوم من محرم سنة 325 انظر المقري النفح : ج 1 ، ص 526 انظر كذلك ابن عذاري المصدر السابق ، ج 2 ، ص 231 ، ولقد ذكر مسلمة بن عبد الله المهندس الناظر في بنيانها انه "تمادى في بنيانها الى حين وفاته رحمه الله في سنة خمسين وثلثمائة " انظر ابن غالب فرحة الانفس ، ص 300.

31 – ابن غالب :المصد ر السابق ، ص 300.

32 – المقري ، النفح ، ج 1 ، ص 526 انظر كذلك ابن خلدون كتاب العبر : ج 4 ، ص 144.

33 – نفسه ، ج 1 ، ص 567 انظر كذلك ابن غالب المصدر السابق ، ص 300.

34 – المقري : النفح ج 1 ، ص 555.

35 – ابن حيان : المقتبس قطعة شالميتا : ج 5 ، ص 176.

للخشب بكورة جيان ، و"الرخام الابيض من المرية والمجزع من رية "[36] فضلا عما "جلب اليها من الالات الجليلة "[37] من مختلف بقاع العالم كالرخام "الوردي والاخضر من افريقية من اسفاقس وقرطاجنة "[38] و"الحوض الغريب المنقوش المذهب .. من القسطنطنية "[39] بالاضافة الى "أربعمائة الاف سارية وثلاثمائة سارية وثلاثة عشر سارية "[40] منها ما هو مجلوب من حواضر الاندلس ومقاطعها ، ومنها ما هو مجلوب من افريقية [41] وبلاد الشام[42] وبيزنطة [43] وعديد هم العرفاء الذين تخصصوا في عقد هذا النوع من الصفقات ، نخص منهم بالذكر ربيع بن زيد الاسقف[44] صاحب يومية قرطبة الشهيرة .و"العريف المعروف بالقلفاط ،وكانت له من الناصر لدين الله منزلة"[45] والامناء عبد ألله بن يونس ، وحسن القرطبي ، وعلي بن جعفر الاسكندراني[46] وغيرهم .

ومن الملاحظ ان الاهتمام العمراني للخلفاء وملوك الطوائف بعدهم - وان بدرجات متفاوتة - لم يقتصر على القصور والمنتزهات والمنشئات الخاصة ، بل كثيرا ما تعدى ذلك الى اقامة المنشئات الكبرى ذات النفع العام ، التي يعجز عنها الافراد . فمن المعروف ان الناصر لدين اقدم على ترصيف الرصيف[47] من قرطبة الى مدينة الزهراء ، على طول ما ينيف عن "عشرة اميال "[48] وهي الطريق التي جهزت لاحقا ب "ضوء السرج المتصلة "[49] ومن المعلوم ان عديدة هي الاعمال الحضرية الكبرى التي انجزت بالاندلس خلال هذين القرنين ،نخص من ذلك بالذكر تجهيز قرطبة بشبكة لنقل " المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة .. في قنوات الرصاص "[50] وبشبكة ثانية

---

36 - المقري النفح ، ج 1 ، 526.
37 - نفسه ، ج 1 ، ص 579.
38 - المقري : النفح ، ج 1 ، ص 526.
39 - ابن عذاري : البيان ج 2 ، ص 231.
40 - نفس المصدر والصفحة ، انظر كذلك ابنت غالب فرحة الانفس ، ص 300.
41 - ابن عذاري : البيان ، ج 2 ، ص 231.
42 - المقري : النفح : ج 1 ص 526.
43 - ابن عذاري البيان ج 2 ، ص 231.
44 - نفس المصدر والصفحة .
45 - ابن حيان ،المقتبس ج 5 ، ص 176.
46 - ابن عذاري ، البيان ، ج 2 ، ص 231.
47 - ابن حيان ، المقتبس ، ج 5 ، ص 478.
48 - ابن حوقل ، صورة الارض ، ص 107.
49 - المقري ، النفح ، ج 1 ، ص 456.
50 - احمد الرازي ، وصف الاندلس ، ص 65.

من قنوات تصريف المياه المستعملة [51] ولقد اصبحت اشبيلية في عهد بني عباد تتوفر على شبكة مماثلة من "سرب المدينة تشق بجريها تحت الارض .. الى الوادي"[52] بصرف النظر عما انشيء من مراسي ومصانع للسفن[53] واقيم من اسوار وابراج وابواب ، وشيد من مجامع وقناطر وغيرها .

حقيقة انه من الشائع لدى القدامي ان "حظ السلطان من عمارة البلدان اوفى من حظ رعيته"[54] وهو ما أكده ابن خلدون [55] بقوله : ان "استبحار العمران .. انما يجيىء من قبل الدولة ". مع ذلك فهناك مؤشرات دالة عن تعاظم دور الافراد من مختلف الطبقات الاجتماعية خاصة وعامة في مجال البناء والعمران،" فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة .. ويهيىء مع ذلك الاسراب والمطامير .. والاصطبلات ... ومنهم من يبني الدويرة والبييت لنفسه وسكنه .. وبين ذلك مراتب غير منحصرة "[56] هكذا فعلى غرار الناصر والمستنصر " تسارع الناس الى العمارة وتكاثفت الابنية وتزايدت فيها الرغبة "[57] وبالمثل ، فلما اتم المنصور بن ابي عامر مدينته الزاهرة "تنافس الناس بالنزول باكنافها ، والحلول باطرافها .. وتناهى الغلو في البناء "[58] حتى غدت قرطبة بمدنها الملكية الثلاث الرصافة والزهراء والزاهرة، وبأرباضها التي تنيف عن واحد وعشرين ربضا[59] "تجمعا حضريا جد ضخم بالنسبة لذلك العصر"[60] لذلك فهي تقدم الحقل النموذجي لمعاينة ، ليس فقط مستجدات الحياة الحضرية وهي في اعلى درجات اكتمالها[61] بل وكذلك لرصد تحدياتها للفقه والتشريع ، واختبارها لقدرات نظام الخلافة على التنظيم.

---

51 – نوازل ابن سهل مخطوط د 1728 ، ص 94.

52 – ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص 387.

53 – ابن عبدون ، الحسبة ، ص 219.

54 – الماوردي ، تسهيل النظر وتعجيل الظفر ، ص 210.

55 – ابن خلدون ، المقدمة ، ج 3 ، ص 872.

56 – نفسه ، ج 3 ، ص 933.

57 – ابن حوقل ،صورة الارض ، ص 107.

58 – المقري ، النفح ، ج 1 ، ص 579 ، انظر كذلك ابن عذاري ، البيان ، ج 2 ، ص 276.

59 – المقري ، النفح ، 465 ، بينما يحددها ابن عذاري في 28 ربضا انظر البيان ، ج 2 و ص 232.

60 – Provençal : L'espagne muusulmane au X siècle :p 231.

61 – انظر مقالنا ،قرطبة في عصر الخلافة ، النموذج الامثل للنمو الحضري بالغرب الاسلامي الوسيط ضمن هذا الكتاب.

حقيقة ان قرطبة قد تعرضت خلال اضطرابات الفتنة في أواخر القرن الرابع الهجري لتخريب واسع النطاق ، وغدت كغيرها من الحواضر الاندلسية من "المدن المتوسطة "[62] الا انه بالموازاة لانهيار هذا التجمع الحضري الضخم ، نشط البناء والعمران على الصعيد الاقليمي في ظل ملوك الطوائف والمتنفذين الجدد ، على الاقل خلال النصف الاول من القرن الخامس الهجري ، مما يسمح بمتابعة المستجدات والتحديات السالفة الذكر طوال هذا القرن . وتقدم اشبيلية بفضل دورها كحاضرة لمملكة بني عباد ابرز المظاهر الكاشفة عن استمرار النمو الحضري خلال عصر الطوائف - وان كان في حلة جديدة - ولاغرو، فقد تالقت خلال هذا العصر" وغدت المدينة الاكثر اهمية بمجموع الاندلس"[63] وتبوأت بين غيرها من المدن الاندلسية مركز الصدارة ابتداء" من اول المائة الخامسة من الهجرة "[64] حتى اشتهرت بكونها "ام القواعد والمدائن" .[65]

وامام التوسع الحضري الهائل ، لم تجد الخلافة الاموية خلال القرن الرابع بدامن تقسيم قرطبة إلى عدد من الجهات : الجهة الشرقية [66] وتحتوي على سبعة ارباض[67] والجهة الغربية[68] وتحتضن تسعة ارباض[69] والجهة الجوفية وتشمل على ثلاثة ارباض[70] ثم الربضين اللذين بالجهة القبلية [71] وأخيرا " القصبة العتيقة واسطة البلد وكان ينقسم الى ربضين "[72] وتقدم كتب الوثائق والسجلات[73] معلومات هامة عن خضوع كبريات الحواضر الاندلسية لهذا الشكل من التنظيم الحضري الذي يميز

---

62 - ياقوت الحموي ،المصدر السابق ، ج 4 ، ص 324.

63 - Refael valencia : el espacio urbano de la sevilla arabe ; p 277.

64 - ابن بسام ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، ق 2 ، م 1 ، ص 11.

65 - ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج 2 ، ص 292.

66 - ابن سهل، النوازل ،مجلة هسبريس ، 26 وما زالت تعرف الى اليوم بنفس الاسم ajarquia .

67 - وهي كالتالي :ربض شبلار ، وربض فرن بريل ، وربض البرج ، وربض منية عبد الله ، وربض منية المغيرة ، وربض الزاهرة ، وربض المدينة العتيقة ، انظر المقري النفح ، ج 1 ، ص 466.

68 - ابن سهل ، المصدر السابق ، هيبريس ، ص 26.

69 - وهي كالتالي :ربض حوانيت الريحان ، وربض الرقاقين ، وربض مسجد الكهف ، وربض بلاط مغيث ، وربض مسجد الشفاء ، وربض حمام الالبيري ، وربض مسجد مسرور ، وربض مسجد الروضة وربض السجن القديم، المقري النفح ، ج 1 ، ص 465 - 66.

70 - وهي كالتالي، ربض باب اليهود ، وربض مسجد ام سلمة، وربض الرصافة ، انظر المقري، النفح ، ج 1 ، ص 466.

71 - وهما ربض شقندة ، وربض منية عجب ، نفسه ، ج 1 ، ص 465.

72 - ابن عذاري البيان ، ج 2 ، ص 232.

73 - انظر ابن العطار: كتاب الوثائق والسجلات ، 117 وكذلك وثائق عبد الله بن عبد الواحد الفهري ، ورقة 7 وجه . ونوازل ابن سهل ، المخطوط ، ص 138.

داخل المدينة بين الجهات والنواحي ، التي عادة ما تحتوي على مجموعة من الارباض ، المحتضنة بدورها لعدد من الحوم والحارات والمواضع . وتعتبر الحومة [74] الوحدة الحضرية الاساسية [75] التي ترتبط تنظيما بمسجد ، غالبا ما يكون اسمه مطابقا لها ، ودالا عليها.

وتقدم المصادر الاندلسية اسماء عدد من الحوم القرطبية ، نخص منها بالذكر" حومة مسجد البلنسي برحبة ابان "[76] وحومة مسجد عبادل [77] وحومة مسجد القلباطي[78] والموضع المعروف ببرنان بن الرحمي[79] وهي جميعا بداخل مدينة قرطبة . كما اشار ابن سهل[80] "الى حومة مسجد اسلم " بربض حوانيت الريحان ، وذكر[81] "حومتمسجد ضوء "الواقعة بالربض الشرقي من مدينة قرطبة ، فضلا عن مسجد الامير هشام[82] بربض بلاط مغيث ، وحومة مسجد رستشان[83] وحارة الدباج[84] وحومة مسجد الشفا[85] وغيرها من الحوم والحارات . ولعل فيما ذكره صاحب المسالك والممالك بان "عدد المساجد بقرطبة اربعمائة مسجد واحد وسبعون مسجدا "[86] مايقدم فكرة عن عدد الحوم والحارات بمجموع الدائرة الحضرية لقرطبة وهي في أعلى درجات اكتمالها .

وعلى غرار قرطبة ، يمكن من خلال مصادر متنوعة ضبط عدد لايستهان به من الحوم المكونة لاشبيلية حاضرة بني عباد وهي في ذروة نموها . منها ما نسب لبعض ابواب المدينة ، مثل حومة باب

---

74 - والحومة هي المصطلح الشائع في مختلف المصادر القديمة تاريخية وفقهية واحيانا تعرف بالحارة التي كشف الزبيدي عن معناها بالقول : "وكل اهل محلة دنت منازلهم فهم اهل حارة لانهم يحورون اليها ": لحن العامة ، ص 210.

75 - [illegible] صا بالغ الدلالة لدى ابن عذاري : البيان : ج 4 ، 74 . وكذلك معيار الونشريسي : ج 1 ، ص 22.

76 - نوازل ابن سهل ، المخطوط ، 838 ق ، 108.

77 - نفسه ، 171.

78 - نفسه ، 223.

79 - نوازل ابن الحاج : 140.

80 - نوازل ابن سهل المخطوط : 838 ق : 173.

81 - نوازل ابن سهل مخطوط د 1728 ، ورقة 75.

82 - نوازل ابن سهل ، هسبريس : 37.

83 - نوارل ابن سهل المخطوط ، 838 ق : 318.

84 - نفسه : 317.

85 - نوازل ابن سهل ، هسبريس : 37.

86 - المقري ،النفح ، ج 1 ، 541 ولقد ذكر في مكان آخر رقما مرتفعا للغاية اعتمادا على بعض التواريخ القديمة على حد تعبيره اذ قال :" كان بقرطبة في الزمن السالف ثلاثة الاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجدا " نفسه ، ج 1 ، ص 540.

الحديد[87] المنتظمة حول مسجد باب الحديد"[88] وحومة الجبانة [89] نسبة لـ "جبانة قرمونة "[90] ومنها ما اقترن باسماء بعض الاعلام المشهورة كحومة السيدة [91] بالنسبة لـ"مسجدها المنسوب اليها"[92] وحومة ابي الحكم بن حجاج[93] وحومة ابن المليلة [94] وحومةمسجد ابن الرب[95] وغيرها من الحوم المنسوبة للائمة واهل القلم الاشبيليين .في حين اقترنت حوم اخرى ببعض المعالم العمرانية البارزة مثل حومة القصر المبارك[96] وحومة مسجد الشهداء [97] وغيرها .

بالاضافة لاهمية هذا التقسيم في الضبط الأمني للسكان[98] وفي تاطيرهم اداريا وقضائيا ، بل وحتى فكريا ومذهبيا ، فقد برهن عن فعالية كبرى على مستوى الضبط العقاري ، فالملاحظ ان الموثقين قد دأبوا على الضبط الدقيق لمختلف المعاملات العقارية. فبخصوص عقود الملكية ، المفروض تحديد موقع العقاران كان دارا" بحاضرة قرطبة بشرقي مدينتها او بغربها بربض كذا وبحومة مسجد كذا او بحاضرة كذا ، ومنتهى حدها كذا بحقوقها ومنافعها ومرافقها الداخلة فيها والخارجة عنها "[99] بحيث لايترك اي مجال للخلط مستقبلا ولاللخلاف . ولم تكن عقود البيع أقل دقة ، فاذا كان المبيع فرنا فالمطلوب ذكر" حقوقه ومنافعه ومرافقه وقنوه ومصاطبه "[100] بعد تحديد موقعه بالنسبة للمدينة والربض والحومة وحدوده من الجهات الاربع بالنسبة للاملاك المجاورة له . وان كان حماما ، يلزم ذكر "سقائفة المعدة للزبل وقدره ورخامه وبحاري مياهه ومضاويه وقنواته واكوابه وبيره وصهريجه ومصاطبه

---

87 – ابن سهل ، المصدر السابق المخطوط ، 838 ق ، ص 421.

88 – ابن عبد الملك المراكشي الذيل والتكملة ص 1 ، ق 1 ، 413.

89 – ابن عذاري :البيان قسم الموحدين ، ص 36.

90 – ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ،س 1 ، ق 1 ، ص 261.

91 – والمقصود بالسيدة والدة المعتضد بن عباد .

92 – ابن عبد الملك المراكشي : المصدر السابق ، س 5 ، ق 2 ، 539.

93 – الضبي ، المصدر السابق ، ص 176.

94 – ابن خير : عمدة الطبيب 121 وابن المليلة هذا هو عبد الملك ابن محمد بن سعيد التجيبي المكنى بابي مروان ابن المليلة ، اشبيلي ولد سنة 436 ، وتوفي سنة 535 هـ

95 – نفس المصدر ، ص 78.

96 – المقري ، النفح ، ج 3 ، ص 65.

97 – ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ، س 1 ، ق 2 ، 127.

98 – فلقد كانت قرطبة على ضخامتها تحت الضبط الشديد "انظر ابن بسام : الذخيرة ق 1 ، م 2 ، 605.

99 – ابن العطار :كتاب الوثائق والسجلات ، 357 لمزيد من التفاصيل انظر نوازل ابن سهل المخطوط 838 ق، ص 138.

100 – وثائق الجزيري ورقة 70 و

ودكاكنه وجميع حرمه"[101] وان كان حانوتا يضاف الى ذلك تحديد موقعه "بسوق كذا "[102] من اسواق المدينة ،فضلا عن "محجة السوق التي اليها يشرع بابه وان كان على بابين "[103] ذكرا كذلك .وامعانا في الضبط ، وتلافيا لما قد يثيره انتقال الملكية من نزاعات اصبح "من اصولهم انه لايجوز ان يخرج من يد مالك شيء الا بيقين تقطع عليه البينة "[104] لذلك فعلى الرغم مما كانت تحتويه عقود التحبيس من تفاصيل ، لم يكتف بها القضاء "الابعد ان يتعين عنده بالحيازة "[105] حتى غدت "الحيازة من شروط تمام التحبيس ".[105]

والجدير بالملاحظة ان التشريعات الفقهية ما فتئت تتحدد وتتفرع وتنمو في مواكبة أدق تفاصيل الحياة الحضرية. وما فتئت المستجدات تعرض على المحاكم بقرطبة واشبيلية وبغيرها من حواضر الاندلس . ولم يتوقف تدفق الاستفسارات والاستفتاءات على كبار الفقهاء المفتين وشيوخ العصر بهذا الخصوص . مما يكشف على ان الاندلس كانت تمر بحمى اجتهاد خلال هذين القرنين في اتجاه بلورة قوانين مفصلة لضبط وتنظيم مختلف مجالات الحياة الحضرية .

ومن القضايا التي أثيرت امام المحاكم القرطبية " اصلاح الجدار المشترك ان تهدم فلم يرد احد منهما بناءه "[107] وكثيرهم اللذين رفعوا الدعوة ضد من "بنى على حائطه متعديا "[108] كما تعدد ركوب القضاة "مع الفقهاء الى معاينة حائط فيه تنازع "[109] وهناك حالات تدخلت فيها المحاكم لمنع "احداث ميزاب على دار اخرى "[110] او احداث فرن بقرب دار لانه يحط من ثمنها"[111] او بشأن "زقاق لقوم غير نافذ ففتح الرجل باب داره الى هذا الزقاق "[112] وعديدة هي النوازل التي اثيرت حول

101- نفيس المصدر والصفحة .

102- نفس المصدر والصفحة .

103- نفس المصدر والصفحة .

104- فتاوي ابن رشد ، ج 1 ، ص 203.

105- نفسه ج 1 ، ص 202.

106- نفس المصدر والصفحة .

107- ابو الوليد الباجي : فصول الاحكام ، 205.

108- ابن سهل : النوازل ، هسبريس : 53.

109- نفسه ، ص 51.

110- ابن العطار ، المصدر السابق ، ص 371.

111- نوازل ابن سهل ، هسبريس ، 56.

112- نوازل ابن سهل ، المخطوط 838 ق ، ص 356.

ضرر اتخاد الحوانيت للتجر والصناعة بالاحياء السكنية [113] واضرار بناء طبقة على المساكن المجاورة [114] وغيرها من قضايا التساكن والبناء .

ولم تكن تفاصيل المنشئات الداخلية للدور والحوانيت وغيرها لتند عن مراقبة السلطات الحضرية . بما في ذلك اقامة كراسي الحدث [115] وبناء المطامر الغير المسربة [116] واحداث الاوراج[117] والابار لتجميع المياه [118] بل وحتى المطابخ [119] والطواحين ب"أسطوان الدار المكشوف "[120] وكثيرا ماتم التدقيق في عقود عقارية مختلفة في طبيعة مواد البناء المفروض استعمالها في " بناء الجدارات بالاجرأو بالصخرأو بالطوب "[121] وكذا في مقادير سمكها وارتفاعها[122] وفي شكل السقوف ، علما بان "بعض البيوت سقفها قرامد وسقف بعضها تبن".[123]

واضافة لدور القضاة والمحاكم والفقهاء المفتين في ضبط شؤون البناء والعمران ودور الموثقين وصاحب المواريث والاحباس ، في تحرير العقود وضبط انتقال الملكيات العقارية ، والمهام الجزئية التي تسند لصاحب الشرطة والسوق او للمحتسب الذي له "الحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة "[124] فلقد كان "للعدول من اهل كل ربض"[125] وكذلك "للشهود العارفين بامور البنيان وعيوب الديار وعقود الجدارات "[126] دورا متزايدا باعتبار احتكاكهم اليومي بقضايا ومشاكل احيائهم وارباضهم العمرانية والسكنية ، فهم "ادرى بالسداد وشهادتهم اصح وأوتى ان تسمع"[127] مع ذلك ، فعديدة هي المهام التقنية التي استحدثت لمساعدة

113- فتاوي ابن رشد ، ج 1 ، : 169-70

114- نفسه ، ج 3 ، 1508- 1509 .

115- نفسه ، ج 3 : 1330.

116- نفسه ، ج 3 ، 1333- 1334.

117- نوازل ابن سهل المخطوط : 838 ق : 353.

118- نفسه : 177.

119- نفسه : 353.

120- نفسه : 138.

121- وثائق الجريزي ورقة 77 ظ

122- نفس المصدر والصفحة.

123- نوازل ابن الحاج : 245.

124- ابن خلدون المقدمة ، ج 2 ، 576.

125- نوازل ابن سهل المخطوط 838 ق : 201.

126- فتاوي ابن رشد : ج 3 : 1508 .

127- نوازل ابن سهل المخطوط 838 ق : 201.

الخطط والمسؤوليات السالفة للقيام بدورها في هذا المجال على الوجه الاكمل . فبالاضافة لامناء [128] وشيوخ البناءين[129] "اهتم القسام الذين يعرفون قيمة الدّور [130] بتقديم شهاداتهم للجهات المختصة. ومعلوم أنهم لايشهدون في مثل هذا الا بالاجرة [131] اما "عرفاء البنيان "[132] فهم على العكس مختصون في تحديد "قيمة عيوب الدور"[133] تنم هذه الحقائق على ان ثمة نظام معقد تتكامل فيه الادارة والتشريع والمعرفة العمرانية لتوفير تاطير فعال للنمو الحضري الهائل الذي كانت الاندلس مسرحا له خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة .

وامام الانفجار العمراني ، واضطراد النمو الديموغرافي [134] لم تتردد الدولة عن التدخل على اعلى مستوى لاعادة هيكلة بعض المنشئات الحضرية ، واعادة النظر في تهيئة بعض انحاء الحواضر. فلقد امر الخليفة المستنصر بالله صاحب الشرطة والسوق احمد بن نصر بتوسيع المحجة العظمى بسوق قرطبة لضيقها عن مخترق الناس وازدحامهم فيها وهد الحوانيت المتحيفة لعرضها ،المضيقةلسبيلها نظرا منه لكافة المسلمين[135] كما اقدم على توسيع المحجة المارة على حومة فرن بريل بالربض الشرقي "بابتياع الحوانيت التي على هذه المحجة من اربابها مابلغ مايوافقهم من اثمانها وهدمها وضمها الى المحجة كيما تتسع "[136] كما تم تنقيل دار البرد من سوق قرطبةالعظمى الى مكان آخر" واقامة حوانيت للبزازين بدار البرد المخلاة لينفسح بهم سوقهم وتتسع صناعتهم اذ شكوا بضيقها"[137] وبالمثل ، فلما تجرد المنصور لبناء القنطرة على نهر قرطبة الاعظم " كانت هناك قطعة ارض لشيخ من العامة ولم يكن للقنطرة عدول عنها فامر المنصور امناءه بأرضائه فيها"[138] وفي دولة المعتمد بن عباد ، اقدم بن شهاب اذ كان محتسبا على قلع الخوابي المجاورة لمسجد الفخارين وصير مكانها مقابر"[139]

128- السقطي : في اداب الحسبة : 9.

129- نفسه : 25.

130- ابن سهل :النوازل :المخطوط : 838 ق : 201.

131- نفس المصدر والصفحة .

132- نفس المصدر والصفحة .

133- نفس المصدر والصفحة .

134- ابن عذاري : البيان ج 2 ، 287.

135- ابن حيان : المقتبس قطعة الحجي : 70 -71.

136- نفسه : 67.

137- نفسه : 66.

138- المقري : النفح : ج 1: 408.

139- ابن عبدون : كتاب الحسبة : 216.

بعدما ضاقت غيرها باشبيلية عن الدفن . لم يتوقف الامر عند هذا الحد ، ففضلا عن تزيين بعض الرحاب والاماكن العامة بالمعالم الفنية[140] واتخاذ المتنزهات والبحيرات العمومية [141] كثيرا ما تدخلت الدولة في الشكل المعماري الخارجي للواجهات فبخصوص دور مدينة طريانة على سبيل المثال ، المشرفة على الوادي الكبير "سن فيها المعتمد ان تبيض بالكلس لئلا تنبو العين عنها ، ومن لا ينهض الى ذلك فيبني من جهة الصحراء ولايترك يبني من جهة النهر ، فجاءت بديعة فتانة المنظر ، اكثرشراجيبها منقوشة مذهبة تخطف الابصار ".[142]

تنم هذه النصوص عن عدة حقائق ،فالجميع عامة وخاصة وسلطان ملزمون باحترام عقود الملكية. فلما تجرأ سعيد بن محمد بن السليم[143] على سبيل المثال على الملك العام " فيما اقتطعه من محجة المسلمين وضمه الى جنانه الملاصقة لمحجة قرطبة"[144] بربض منية المغيرة الواقع بالجهة الشرقية من الحاضرة ، اقيمت عليه الدعوى وأصدر القاضي الحكم ب "امضاء الهدم والاخذ في ذلك بقول من راى هدمه "[145] وعديدة هي الاحكام الصادرة ضد اهل البيوتات وكبار رجالات الدولة، وحتى ضد افراد من الاسرة الاموية الحاكمة [146] لاخذهم على احترام التشريعات المتداولة . ومن واجب الجميع الخضوع لاحكام وقوانين البناء والعمران ولفتاوي فقهاء العصر فيما استجد من قضايا ونوازل ، بل وحتى لمقاييس التناسق المعماري والجمالي، مما يجعلنا امام ارقى اشكال النمو الحضري والتساكن المدني.

140- فلقد اقام الناصر على سبيل المثال " الفوارة ازاء باب القصر " بقرطبة انظر ابن عذاري : البيان : ج 2 : 174.

141- نخص بالذكر "مرج الفضة وهو مكان بهيج يجتمع الرجال والنساء للفرجة فيه" بمدنية اشبيلية ،انظر التجاني: تحفة العروس ،دوزي: م 2 : 151.

142- ابن سعيد :المغرب في حلى المغرب ، ج 1 : 293.

143- وابوه محمد ابن السليم قاضي الجماعة للخليفة الحكم المستنصر ، ولى القضاء بعد المنذر بن سعيد البلوطي ، ولقد توفي سنة 367 هـ انظر النباهي قضاة الاندلس : 75 - 77 وكذلك الخشني قضاة قرطبة : 120.

144- نوازل ابن سهل : المخطوط 838 ق : 342.

145- نفسه 352.

146- انظر على سبيل المثال الحكم الصادر على خال ولي العهد في دولة الناصر ، ابن خاقان ،مطمح الانفس : 54 ومحاكمة والي اشبيلية في دولة الحكم المستنصر، ابن حيان قطعة الحجي 86 وبخصوص قضية اخرى : نفسه 100 وفيما يتعلق بعهد المنصور على سبيل المثال انظر: ابن عذاري : البيان ج 2 : 289 وكذلك المقري النفح: ج 1 : 409.

الا ان نوازل التسور على الملك العام ، وغصب املاك الغير با لاستنادعلى الجاه والسلطان[147] سرعان ما غدت العملة العقارية الاكثر تدوالا ابتداء من القرن الخامس الهجري بمجموع الاندلس . ومنذ منتصف هذا القرن بدأ الانهيار الشامل الذي كان له اعمق الأثرعلى مستوى الفقه والتشريع ، الذي ما فتىء يتراجع تدريجيا عن دوره في تنظيم الواقع والتشريع للنمو ، وغدا منحاه العام التركيز على العبادات واهمال المعاملات ، التي تحجرت تشريعاتها وانغلقت في الاطار المدرسي التعليمي، مفصحة عن هوة مافتئت تزاداد اتساعا بين التشريع الفقهي والواقع العياني ، طوال القرون اللاحقة .

147- انظر ابن سهل : النوازل مخطوط 838 ق : 223 و 31 و 266 وكذلك ابن الحاج : 109 - 110 و 123.

لائحة المصادر

1 - ابن الابا ر : الحلة السيراء : تحقيق حسين مؤنس : القاهرة 1963 - 1964.

2 - ابن بسام : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة : تحقيق احسان عباس : الدار العربية للكتاب : ليبيا تونس : 1981.

3 - ابن بلقين : كتاب التبيان : تحقيق ليفي بروفنسال : القاهرة 1955.

4 - ابن الحاج : النوازل :مخطوط المكتبة العامة الرباط ج 55.

5 - ابن حوقل :صورة الارض :بيروت 1979.

6 - ابن حيان : المقتبس في اخبار الاندلس

أ - قطعة شاميتا /كورينطي / صبح :المعهد الاسباني العربي للثقافة : مدريد 1979.

ب - قطعة عبد الرحمن الحجي : بيروت 1965.

7 - ابن خاقان : مطمع الانفس: تحقيق محمد شوابكة : دار عمار بيروت 1983.

8 - ابن خلدون

أ - المقدمة : تحقيق علي عبد الواحد وافي : القاهرة 1957-1959.

ب - كتاب العبر : الجزء الرابع : القاهرة 1984 هـ.

9 - ابن رشد الفتاوي :تحقيق المختار التليلي : دار الغرب الاسلامي : (3 اجزاء) : بيروت 1987.

10 - ابن سهيل

أ - النوازل مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم د 1728.

ب - النوازل مخطوط المكتبة العامة : رقم 838 ق.

س- القطعة المنشورة بهسبريس من طرف التهامي الزموري : العدد 14 الرباط 1973 : صفحات 22 - 105

11 - ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب : تحقيق شوقي ضيف : دار المعارف القاهرة (جزءان) الطبعة الثالثة

12 - ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة : تحقيق عبد الهادي التازي : دار الغرب الاسلامي الطبعة الثالثة بيروت 1987.

13 - ابن عبدون : كتاب الحسبة : نشرليفي بروفنسال : المجلة الاسيوية عدد 1934.

14 - ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة : السفر الاول ق 1 ق 2.

15 - ابن عذاري : البيان المغرب :

أ - تحقيق بروفنسال /كولان : بيروت 1980.

ب - قسم الموحدين : تحقيق مجموعة من الباحثين : دار الغرب الاسلامي : بيروت 1985.

16 - ابن العطار : كتاب الوثائق والسجلات : المعهد الاسباني العربي للثقافة : مدريد 1983.

17 - ابن غالب: فرحة الانفس في تاريخ الاندلس ; قطعة من الكتاب منشورة في مجلة معهد المخطوطات العربية ، م1: ج1: القاهرة 1955.

18 - ابو الخير الاسبيلي :

أ - كتاب الفلاحة :نشر القاضي التهامي الناصري : فاس 1357 هـ.

ب - عمدة الطبيب في معرفة النبات : تحقيق محمد العربي الخطابي : (في قسمين) الرباط 1990.

19 - احمد الرازي : وصف الاندلس : نشر ليفي بروفنسال مجلة الاندلس م 18 :1953.

20 - الباجي ابو الوليد : فصول الاحكام : تحقيق محمد ابو الاجفان : الدار العربية للكتاب 1985.

21 - التجاني : تحفة العروس : نشر دوزي Dozy historia Abdadidarum volumen Alterum Paris 1852

22 - الحميري (محمد بن عبد المنعم) : الروض المعطار في خبر الاقطار : تحقيق احسان عباس : مكتبة لبنان : الطبعة الثانية 1984.

23 - الجزيري : كتاب الوثائق : مخطوط المكتبة العامة الرباط : 592 ق (ضمن مجموع).

24 - الخشني : قضاة قرطبة : المكتبة الاندلسية : القاهرة 1966.

25 - الزبيدي : لحن العامة: تحقيق دكتور عبد العزيز مطر : دار المعارف 1981.

26 - الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس : دار الكتاب العربي : القاهرة 1967.

27 - الفهري : الوثائق : مخطوط مكتبة المجلس الاعلى للابحاث العملية مدريد : رقم

28 - النباهي : المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا : دار الافاق الجديدة بيروت 1980.

29 - الونشريسي : المعيار المغرب فتاوي في اهل افريقية والاندلس والمغرب : منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية 1981.

30 - ياقوت الحموي : معجم البلدان : دار صادر بيروت 1979.

31 - المقري :نفح الطيب في الاندلس الرطيب : تحقيق احسان عباس : بيروت 1968.

32 - احمد الطاهري : قرطبة في عصر الخلافة النموذج الامثل للنمو الحضري بالغرب الاسلامي: ضمن المدينة في تاريخ المغرب العربي : منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية 2 ابن امسيك البيضاء : المغرب 1988.

33 - رفاييل فلنسيا :

Rafael Valencia Rodrignez : EL Espacio urbano de la sevilla arabe univensidad de sevilla 1988

34 - ليفي بروفنسال : *L'Espagne musulmane au X siecle : larose paris 1932*

35 - ماريا اسابيل فييرو :

Maria isabel fierro: El Derecho Maliki en Al- Andalus (siglos II/VIII - V/XI) Estado de la cuestion y perspectivas : Al - Qantara vol XII Madrid 1991

العامة والإتجاهات الفكرية بالأندلس

في عصر الخلافة

نشر هذا البحث في مجلة دراسات عربية : بيروت العدد 3 السنة 22 يناير 1986 : صفحات 45 – 54.

تكاد تكون فكرة تسخير العامة لمواجهة الفكر الفلسفي والتيارات العقلانية المستنيرة من البديهيات لدى المهتمين بالفكر الاسلامي . وإذا كان في المصادر القديمة من النصوص مايبرر هذا الاعتقاد ، فقلة معلوماتنا عن هذه الطبقات الاجتماعية ، وعدم اهتمام الدارسين بها يدعوان الى التحفظ من تعميم هذه المقولة على كل مراحل التاريخ الاسلامي ، وفي الاندلس يقدم عصر الخلافة بعض عناصر المراجعة.

كثيرة هي القرائن[1] التي تؤكد على وقوع العامة خلال العصر السابق للخلافة تحت نفوذ الفقهاء المالكيين الذين تحكموا في تأطيرهم وتوجيههم فهل كان للتحولات المستجدة في عصر الخلافة، من دور في تجاوز العامة لمستوى الوعي الحسي، وردود الفعل العفوية ، وفي التحرر من وصاية الفقهاء ؟

من المتعارف عليه ان التسامح الفكري بلغ ذروته خلال هذه الحقبة . ولعل أبرز مظهر على ذلك مااحتوته مكتبة الحكم المستنصر الذائعة الصيت من" الكتب في انواعها مالم يجمعه احد من الملوك"[2] دون أية رقابة على التي تتعارض مع الايديولوجيا السائدة [3] ساعد ذلك على التحرر من الانغلاق الفكري والتزمت المذهبي.

فعلى الرغم من اتخاذ المالكية مذهبا رسميا للخلافة الأموية ، سمح لبقية المذاهب الفقهية بالمشاركة في الحياة الدينية والسياسية . يذكر ابن الفرضي أسماء عديد من الفقهاء الشافعيين الذين مارسوا وظائف مختلفة في خطط الدولة .فمنهم من "كان مشاورا في الأحكام ، ويذهب في فتياه الى

1 - انظر على سبيل المثال الضبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس مجريط 1884 : 16 - 17.

2 - الحميدي : جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس : القاهرة 1952 : 13.

3 - يقول ابن عذاري :وقد "كان في خزائن الحكم من كتب الدهرية والفلاسفة" ، الشيء الكثير: البيان المغرب في اخبار المغرب بيروت : 1980 : ج 2 : 292 - 93.

مذهب الشافعي ويميل الى النظر والحجة "[4] وبالمثل ف " حسين بن سعد ... كان يذهب الى النظروترك التقليد وميل الى قول محمد بن ادريس الشافعي وكان يحضر الشورى "[5] وكذلك ،فعلى الرغم من شافعية احمد بن عبد الوهاب" سار في جملة المقابلين للمستنصر بالله "[6] بل ومنهم من أسندت له مناصب ذات أهمية كبرى في الدولة،فأسلم أبن عبد العزيز " ولي قضاة الجماعة بالاندلس لعبد الرحمن الناصر "[7] رغم شافعيته .

ينطبق نفس الشيء على بقية التيارات الفكرية ، بما في ذلك الاعتزال ، الذي نعم أصحابه بعطف وتقريب الخلفاء ، على الرغم من سيادة السنة . وليس أدل على ذلك ، من أن منذر بن سعيد البلوطي كان "متهما بمذهب من الاعتزال "[8] ومع ذلك لم يتحفظ الخليفة الناصر والحكم المستنصر بعده من إسناد خطة قضاء الجماعة ، على اهميتها وخطورتها ، له وقد أصبح ابنه حكم " رأس المعتزلة بالاندلس وكبيرهم واستاذهم ومتكلهم وناسكهم ... وكان أخوه عبد الملك بن منذر متهما بهذا المذهب ايضا "[9] مع ذلك " ولي خطة الرد أيام الحكم "[10] كماذكر ابن حزم[11] من المعتزلة ايضا " خليل بن اسحاق ويحيى بن السمينة والحاجب موسى بن حدير وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد وكان داعية الى الاعتزال لايستتربذلك ". إن في هذا مايذكر بالمكانة التي حظي بها معتزلة المشرق في خلافة المأمون العباسي.

ولم يتردد المعتزلة عن توجيه انتقادات صارمة لمظاهر البذخ والابهة التي سار عليها الخلفاء والطبقة الأرستقراطية . فقد تناقل المؤرخون [12] أخبار منذربن سعيد البلوطي مع الناصر "في

---

4 – ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس : القاهرة 1922 : 33.

5 – نفسه : 110.

6 – نفسه : 47.

7 – الضبي المرجع السابق : 225.

8 – ابن حزم : طوق الحمامة في الالفة : دمشق 1349 هـ 42.

9 – نفسه : 41.

10 – نفس المصدر والصفحة ، انظر كذلك : ابن الفرضي : المرجع السابق 275.

11 – رسائل ابن حزم الاندلسي تحقيق احسان عباس : ج 2 المؤسسة العربية للدراسات والنشر: الطبعة الاولى بيروت 1981– 186.

12 – ابن خاقان : مطمح الانفس ومسرح التانس في ملح اهل الاندلس : القاهرة 1352 هـ : 46 النباهي ،تاريخ قضاة الاندلس القاهرة 1948 م 72 المقري ،نفخ الطيب في غصن الاندلس الرطيب : بيروت 1968 ج 1 : 573–74.

انكاره عليه الاسراف في البناء "، والتشهير به في خطب الجمعة التي قال عنها الناصر :"والله لقد تعمدني منذر بخطبته... فأسرف علي وأفرط في تقريعي"[13] مع ذلك لم يتجرأ على عزله ، معللا ذلك بالقول :" أمثل منذر بن سعيد في فضله وعمله وخيره ...يعزل لارضاء نفس ناكبة عن الحق "[14] ولاغرو، فقد كانت خطبه ذات وقع قوي في نفوس العامة ، ففي إحدى صلوات الاستسقاء " قام ليخطب ... فهاج الناس بالبكاء وجأروا بالدعاء ".[15]

ومما يكشف عن دور السلطة في حماية المعتزلة ، مخاطبة أحمد بن بقي بن مخلد الوزير أحدهم ممن كان "مشهورا بالقدر لايستتربه "[16] بالقول :" لولا حالة لأشرت بسفك دمك "[17] وبالمثل ، فعندما اسرف أحد المعتزلة في انتقاد فقيه مالكي " مازاده [هذا] ... على أن قال : ياعيني ذئب "[18] تنم هذه النصوص عن جو التسامح والتعايش بين السنة والاعتزال بأندلس الخلافة . وهي ظاهرة شملت مناطق أخرى من العالم الاسلامي – وإن بدرجات متفاوتة – خلال القرن الرابع الهجري ، كما يستفاد من نص بالغ الاهمية أورده الحميدي[19] عن المناظرات الكلامية بالمشرق. مع ذلك يبدو أن طابع الاعتدال كان غالبا على المذاهب الفقهية والتيارات الفكرية ، مما جعلها تجنح الى الوفاق بدل الصراع .فعلى الرغم من شافعية أحد الفقهاء "كان يفتي بمذهب مالك وكان يتحفظ كثيرا من مخالفة المالكية ، قال أحمد بن خالد : قلت له أراك تفتي الناس بما لاتعتقد وهذا لايحل قال انما يسألوني عن مذهب جرى في البلد يعرف فافتيهم به ولو سألوني عن مذهبي أخبرتهم "[20] وهو ما أكده ابن حزم [21] بالقول :" وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ولااختلفت فيها النحل ، فقل لذلك تصرفهم في هذا الباب ،(...) وقد كان فيهم قوم يذهبون الى الاعتزال ... ولهم فيها تواليف".

نخلص الى أن من شأن هذا المناخ الفكري ، القائم على الانفتاح والحرية المذهبية والتعددية تقويض احتكار الثقافة ومراكز التاثير من طرف الفقهاء المالكيين ، والمساهمة في تراجع نفوذهم

---

13 – النباهي :المرجع السابق : 70.

14 – نفس المصدر والصفحة .

15 – نفسه 71.

16 – ابن الفرضي :المرجع السابق 129 .

17 – نفس المصدر والصفحة .

18 – نفسه 140.

19 – المرجع السابق 101 – 102.

20 – ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب مطبعة المعاهد الطبعةالاولى مصر 1351 هـ 222.

21 – رسائل ابن حزم : ج 2 : 186.

وسطوتهم على فكر وتوجهات العامة . ولعل في انحصار ثورة عبد الله بن الناصر[22] سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة في أوساط الفقهاء وعجزها عن اكتساب قاعدة شعبية في أوساط العامة مايؤكد ذلك .

من المشاع أن الأمية خاصية ملازمة للعامة في المجتمعات الاسلامية الوسيطة فهم " جاهلون لم يستضيئوا بنور العلم "[23] ومشهورون بعدائهم للفكر العلمي[24] والفلسفي[25] والاتجاهات العقلانية، ومتشبثون بالخرافات والشعوذة [26] وهو الوضع الأنسب للحفاظ عليهم تحت السيطرة الفكرية للفقهاء وأهل القلم .لذلك ، فغالبا ماحذر هؤلاء من تعليمهم معتبرين "تفقه الرعاع فساد الدنيا وتفقه السفلة فساد الدين "[27] مع ذلك ، فمن القرائن مايدعو الى التحفظ من تعميم هذا الاعتقاد على كل الفترات التاريخية . فالمعلومات بصدد اندلس الخلافة ، ضافية عن الاهتمام الكبير الذي أولاه الخلفاء للعلم والثقافة ، وتشجيعهم لتعميمها في مختلف الأوساط. هكذا اتخذوا " المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة "[28] وأجروا عليهم " المرتبات"[29] كما "حبس الحكم حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء "[30] حتى ناف عدد الكتاتيب التي استحدثها ، عن "سبعة وعشرين "[31] بصرف النظر

22 – لمزيد من التفاصيل عن هذه الثورة انظر : ابن الفرضي : المرجع السابق : 38 – 39 ابن الابار : التكملةلكتاب الصلة : مصر 1956 : ج 2 : 779– 780 الحلة السيراء :القاهرة 1963 :ج 1 : 602 – 208 ابن حزم : جمهرة انساب العرب :ليفي بروفنسال : القاهرة 1984 : 94 الضبي : المرجع السابق : 337 ابن الخطيب :اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام : نشر ليفي بروفنسال : رباط الفتح 1934: 45.

23 – الطرطوشي : سراج الملوك : مصر 1319 هـ، 56 ، انظر كذلك المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر: مصر 1938 : ج 2 : 335.

24 – انظر مـاأورده ابن حزم عن عدم تصديق عوام الاندلس بكروية الارض : الفصل في الملل والاهواء والنحل:بيروت1975 :م 1 :ج 2 : 97.

25 – المقدسي ، شمس الدين : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم : ليدن 1906 : 236. – 37 ، انظر كذلك المقري: المرجع السابق : ج 1 : 220 – 21.

26 – نفسه :ج 1 : 203 – 204 ، انظر كذلك المسعودي: المصدر السابق : ج 2 : 224 – 25.

27 – الطرطوشي : الحوادث والبدع : تونس 1959 : 72.

28 – ابن عذاري : المرجع السابق : ج 1 : 240.

29 – نفس المصدر والصحفة .

30 – نفسه : 249 ، النص مذكور عند ابن حيان : المقتبس نشر الحجي : بيروت 1965 : 207.

31 – ابن عذاري : المرجع السابق : ج 2 : 240.

عما كان موجودا قبله . اضافة لعدد هائل من الدكاكين[32] والدور[33] والمكاتب[34] المخصصة للتعليم بالأجرة .اقتصرت برامج هذه المؤسسات على تعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن[35] لذلك لم يطالب المعلمون بكفاءات عالية .فقد ذكر ابن حزم [36] "مقرئين ثلاثة للعامة "لا يحسنون النحو، مما عرضهم لاستخفاف وسخرية أهل القلم ، الى حد اتهامهم بالجهل ووصفهم بالحمير[37] في حين اعتز المؤدبون بشرف مهمتهم وقداسة برامجهم التعليمية [38] فالحديث عن وجود معلمين للعامة [39] واتخاذ مفهوم العامة صفة لمجموع التعليم الابتدائي[40] لدليل على مدى شيوع التعليم في أوساط الطبقات الدنيا . وهو ماعبر عنه أحد الدارسين[41] بالقول :" وكان أبناء الشعب جميعا يعرفون القراءة والكتابة " مصداق ذلك ، شهادة المقري[42] بأنهم كانوا " يقرأون لان يعلموا لا لأن يأخذوا جاريا "وأكده المقدسي[43] بقوله : انهم "يحبون العلم وأهله " .تنم هذه النصوص عن تجاوز العامة في تطلعاتهم لمجرد تعلم القراءة والكتابة .وهو ما أكده ابن الفرضي[44] فيما أورده عن محدث قرطبي " كان عوام الناس والمحتسبة يجتمعون اليه ويسمعون منه ". ينطبق نفس الشيء على بقية المعارف ، فشعر الرمادي ، على سبيل المثال ، كان " مشهورا عند العامة ".[45]

لم تقتصر مشاركة العامة في الحياة الثقافية عند حد استهلاك ماهو سائد ، بل تجاوزته الى الانتاج . فقد أورد ابن بشكوال [46] بيتا شعريا من نظم امرأة عامية ، لم يجد أحد الفقهاء غضاضة

32 – ابن بشكوال : الصلة في أخبار اهل الأندلس : القاهرة 1955 : ج 1 : 91.

33 – ابن الابار : المرجع السابق : ج 1 : 358.

34 – ابن عذاري : المرجع السابق : ج 2 : 240.

35 – ابن الابار: المرجع السابق : ج 1 : 223.

36 – الأحكام في اصول الاحكام : القاهرة 1345 هـ : ج 4 : م 1 : 163.

37 – ابن بسام : الذخيرة في محاسن : الجزيرة :بيروت 1978 : ق1 : م 1 : 239 – 40.

38– قال احدهم : "رحمني الله بتعليمي الناس القرآن" ابن الابار: المرجع السابق : ج 1 : 327.

39 – نفسه : 358.

40 – ذكر ابن الابار احدهم بالقول "ادب بمسجد مكرم تاديب عامة " اي يعلم مبادئ القراءة والكتابة : المرجع السابق: ج 1 : 205.

41 – عنان ، محمد عبد الله : الدولة العامرية : القاهرة 1958: 23.

42 – المرجع السابق : ج 1 : 220.

43 – المرجع السابق : 236.

44 – المرجع السابق : 80.

45 – الضبي : المرجع السابق : 478 النص اورده ابن خاقان كذلك ،المرجع السابق 78.

46 – المرجع السابق : ج 2 : 569.

في الاعتراف لها بالفضل ، اذ قال :" فحفظت عنها الشعر " . وبالمثل روى الخشني[47] تفاصيل قصة " مشهورة مستفيضة عند العامة " أي اتخذهم مصدرا لكتاباته . وهو ماينطبق على ابن سعيد ،الذي أورد حكايات شعبية ، قائلا :" لولا كثرة ذكر العامة لها بالاندلس ماذكرتها "[48] في حين لم يتردد غيره [49] عن تانيب أحد طلابه بالقول :" رجعت تأخذ اللغة عن أهل الزمر ".[50]

وفي نص للمقري[51] مايكشف عن غزارة وأهمية الانتاج الثقافي العامي ، اذ يقول :" ولشطار الاندلس من النوادر والتنكيتات والتركيبات وأنواع المضحكات ماتملا الدواوين كثرته وتضحك الثكلى وتسلي المسلوب قصته ، مما لو سمعه الجاحظ لم يعظم عنده ماحكى وماركب ... الا أن مؤلفي هذا الأفق طمحت هممهم عن التصنيف في هذا الشأن فكاد يمر ضياعا " .ولعل فيما وصلنا من أمثالهم[52] مايدل على أهمية الثقافة الشعبية ، المهمشة لدى القدماء والمحدثين على السواء . ويبدوا أن ماعرف بالزجلَ في الأدب الاندلسي ، كان في بداية نشأته ، ابتكارا عاميا[53] يقول ابن قزمان " وجد في الاندلس ضربان من الزجل جنبا الى جنب : أولهما شعبي خالص جاف غليظ يستعمل الزجالون فيه اللغة الدارجة وعجمية أهل الاندلس، وكان يوافق اذواق العوام وثانيهما مصقول مهذب مصطنع متكلف ... ولم يبق من النوع الأول شيء لان مصنفي الكتب ازدروه وضربوا عنه صفحا".[54]

صفوة القول ، ان الاهتمام بتثقيف أوسع الجماهير، و اقبال هؤلاء على ثقافة عصرهم اضافة لاشتراكهم في الانتاج الثقافي ،من شأنه اسقاط احتكار العلم من طرف النخبة والاسهام في الرقي الاجتماعي والاستنارة الفكرية والتقدم الحضاري. من ثم ضرورة التحفظ مرة أخرى من الاعتقاد بسطوة الفقهاء على عقول العامة خلال عصر الخلافة. وليس أدل على صحة هذا المنحى من بروز تيارات فكرية وسياسية ثورية مافتئت تزداد رسوخا وانتشاراً في صفوف العامة، اشهرها حركة ابن مسرة [55]

---

47 – قضاة قرطبة وعلماء افريقية 1372 هـ : 74.

48 – المقري : المرجع السابق : ج 1 : 221.

49 – وهو ابو علي البغدادي الذائع الصيت.

50 – الضبي : المرجع السابق: 510.

51 – المرجع السابق : ج 3 : 156.

52 – الزجالي: امثال العوام في الاندلس : تحقيق محمد بنشريفة : 1971 – 1975.

53 – يبدو ان اشارة المؤرخين الي مقدم بن معافي القبري الضرير المتوفى سنة 300 هجرية ، باعتباره مبتكر فن الزجل ، ينطلق من قاعدة اغفال الزجل العامي وازدراءه.

54 – بلنيثا انحل جونثالث :تاريخ الفكر الاندلسي : ترجمة حسين مؤنس : القاهرة 1955 : 158.

55 – كثيرة هي المصادر التي تناولت هذه الحركة وقد اورد ابن حيان نصا بالغ الاهمية عنهافي المقتبس : نشر شالميتا / كورنطي / صبح : المعهد الاسباني العربي للثقافة -مدريد 1979 : 20 – 36 مع ذلك لم تنل =

ويبدو أنها تبنت فلسفة ثورية تستند على مبادئ اعتزالية [56] فعبد الله ابن مسرة " قال بأنفاذ الوعد والوعيد"[57] وبخلق القرآن[58] كما كان متهماً بالقدر "[59] و"معروفاً بمذهب من الاعتزال "[60] ولاغرو فقد أخذ العلم بالمشرق عن المتكلمين وكبار المعتزلة وتردد هناك مدة فاشتغل بملاقاه أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة[61] وفي الاندلس ،لم يتخل عن مصاحبة أعلام المعتزلة ونظارهم.[62]

ويبدو انه عمل على تبسيط الاعتزال لجعله في متناول العامة " فبرسوخه في بسط العلم وتأنيه في الاستدراج للخصم كان يستهوي العقول والأفئدة "[63] دون أن تمنعه قناعاته الايديولوجية من استعمال نفس سلاح خصومه من الفقهاء المالكيين . فقد كان "يسرد مسائل مدونة المالكية عمدة السنة سرد القرآن ويشققها بالاجتلاب بأوضح برهان حتى يخرج فيها أجزاء مختصرة حسنة لم يزل الاجماع من مخالفيه الى اليوم على أنها أفضل وأوجز وابسط من كل مختصرة صيغت فيها.[64]

كما طعم ابن مسرة اعتزاله بالتشيع وبالتصوف والباطنية . ويتجلى ذلك فيما " أظهره من الزهد وأبدى من الورع "[65] وفي اتخاذه والتقية والكتمان [66] أسلوبا للتنظيم ، واستناده الى مفهوم

= من الاهتمام الا القليل في الدراسات المعاصرة ولعل أشهرها دراسة :

Asin Palacios :Ibn Massarra y su escuela : lustituto Miguel Asin : obras escogidas : Madrid 1946

56 - من الدارسين من حاول طمس اعتزالية المدرسة المسرية للتاكيد على ان الغرب الاسلامي لم يعرف الفلسفة الا مع ابن باجة وابن رشد وذلك بهدف التاكيد على الطابع العقلاني للفلسفة بالغرب الاسلامي، لتسهيل التنظير بحدوث قطيعة مع الفلسفة الاشراقية التصوفية والروحية .محمد عابد الجابري : نحن التراق : دار الطليعة الطبعةالثانية : بيروت 1982 : 245 - 48 وفي اعتقادي انه قد حان الوقت لدارسة الاعتزال في صيرورته التاريخية وفي تأثره وتاثيره وتداخله مع التيارات الفكرية الاخرى .

57 - ابن حيان :المقتبس شالميتا : 61 انظر كذلك ابن الفرضي :المرجع السابق : 40.

58 - ابن حيان : المرجع السابق : شماليتا 27.

59 - ابن الفرضي : المرجع السابق : 217.

60 - ابن حيان : المرجع السابق : شماليتا 32.

61 - نفس المصدر والصفحة ، انظركذلك ابن الفرضي : المرجع السابق 39.

62 - رسائل ابن حزم :المرجع السابق : ج 2 : 168.

63 - ابن حيان : المرجع السابق شماليتا :21.

64 - نفس المصدر والصفحة.

65 - نفسه : 20.

66 - نفسه : 21.

الإمامة[67] وتسمية "راسخيهم في مذهبه دعاة وآئمة "[68] أكد ذلك أغلب من ترجم له بالقول : " كان على طريقة من الزهد والعبادة "[69] و"تدقيق في غوامض اشارات الصوفية "[70] بحيث يبدو أنه قد أخذ الجانب العقلاني البرهاني[71] من الاعتزال وثورية التشيع[72] وشعبية التصوف ، لصياغة إيديولوجية طبقية للعامة . يؤكد ذلك ما أورده ابن حيان[73] عن المسريين بالقول : " فاختدعوا العوام بما أظهروه من التقشف في الزي والتشظف في المعيشة ، واستتروا لبدعتهم بسكنى الأطراف البعيدة حتى استمالوا بفعلهم عصابة" وقد كشف الخليفة الناصر ذاته عن استناد المذهب المسري على العامة كقاعدة اجتماعية في إحدى رسائله إذ قال : " طلعت فرقة لاتبغي خيرا ولاتأمر رشدا من طغام السواد ، ومن ضعف آرائهم ومن خشونةِ الأوغاد "[74] وليس أدل على تزايد انتظام العامة في الحركات الثورية ، واستجابتهم للمذهب والتيارات الداعية للتغيير من قول ابن حيان[75] بأن " الباطن والظاهر من مذاهب العوام موضوعان بين يدي " الخليفة الناصر .

ومن الملاحظ أن المسرية برزت عشية قيام الخلافة الاموية ، واتخذت من قرطبة والضواحي مركزا لها ، وهو الظرف الأنسب لكسب قاعدة شعبية عريضة ، باعتبار الوضعية الخطيرة التي كانت عليها البلاد . لذلك فالمذهب " انتشر بقرطبة وطرأ الى بلاد سواها "[76] بسرعة . وليس أدل على مدى قوة وجماهيرية المدرسة المسرية من أن الامير الاموي عبد الله " رأى أن يسكت عن ابن مسرة خوفا "[77] وهي نفس السياسة التي سار عليها الخليفة الناصر الى حدود سنة أربعين وثلاثمائة هجرية . ولقد بلغ نفوذ هذا المذهب في مختلف أوساط شرائح العامة ، من حرفيين وباعة وفلاحين ، أن " ذعر له أهل السنة من أهل قرطبة وتوقعوا منه البلية "[78] إن في هذا مايسقط الزعم

---

67 – ابن الفرضي: المرجع السابق : 40.

68 – ابن حيان :المرجع السابق : 21.

69 – ابن خاقان: المرجع السابق : 66 ، انظر كذلك الحميدي : المرجع السابق: 58.

70 – نفس المصدر والصفحة .

71 – فقد اشتهر لدى معاصريه بعذوبة منطقه وقوة حجاجه انظر : ابن المرجع السابق : شماليتا : 21.

72 – فهو الرابض لفتنة ، نفسه : 21 ولما دخل الاندلس "طمع في تفريق اهلها" نفسه : 22.

73 – نفسه : 25.

74 – نفسه : 27.

75 – نفسه : 24.

76 – نفسه : 23.

77 – بلنثيا ، آنخل جونثالث : المرجع السابق: 327.

78 – ابن حيان : المرجع السابق : شماليتا 22.

القائل[79] بأن مدارك العامة ساذجة وبسيطة وميالة الى التقليد ، وبأنها لاتتفهم الفكر الفلسفي ولا تستسيغ ثمرات نظره . وبدلا من أن تكون العامة " وقود كثيرة من الفتن والهياج اللذين قادهما أهل السنة وأصحاب الحديث في صراعهم الفكري والسياسي ضد المعتزلة "[80] ففي الحالة التي نحن بصددها نجدها إلى جانب تيار اعتزالي[81] ضد أهل السنة.

أمام هذا الوضع ، ومع عجز الفقهاء وبقية الاتجاهات المساندة للخلافة الأموية ، عن الوقوف في وجه هذا التيار ، لم يبق أمام الخليفة الناصر الى استعمال العنف . وهكذا شرع منذ سنة أربعين وثلاثمائة في شن حرب لاهوادة فيها على المدرسة المسرية [82] ويبدو أن الايديولوجيات الثورية ، مسرية كانت أم شيعية ، قد انكفأت بشكل ملحوظ منذ هذا التاريخ ، وطوال عهد الحكم المستنصر . ولعل فيما أورده ابن سهل[83] عن أبي الخير الشيعي الذي كان " يقول لو تسعة أسياف لكان سيفي العاشر" مايؤكد ذلك . مما لا يستبعد قيام محاولات فردية انتحارية موجهة ضد شخص الخليفة . فقد تصدى للناصر " يوما في بعض مخارجه من القصر في موكب له رجل معتوه تكمن له في بعض جنبات طريقه ، فثار في وجهه وصاح عليه صياحا منكرا وهرول نحوه ومد يده الى شكائم عنانه ... "[84] ولعل في هذا مايفسر الاعدام الفردي الذي طال من حين لآخر " أهل التشريق والبدع المضلة "[85] أي الشيعة.

وفيما بعد ، تجردت الحجابة العامرية لاستئصال الفكر المستنير عموما . فطاردت الفلاسفة والمعتزلة ، وضيقت الخناق على الفكر العقلاني ، وقمعت " أهل البدع "[86] فمنهم من " سجن "[87] ومنهم من نفي و " أمر باخراجه من البلاد "[88] ومنهم من " صلب على باب السدة "[89] فقد ذكر

---

79 - انظر ماأورده محمد عمارة :الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية :المؤسسة العربية للدراسات والنشر الطبعة الاولى : بيروت 1977- 218 - 219.

80 - نفسه 217.

81 - لاينفي هذا صبغة التشيع والتصرف عنه ،كما أكدنا ذلك سلفا.

82 - انظر تفاصيل هذه الحرب لدى ابن حيان :المرجع السابق شماليتا : 20 - 30.

83 - نوازل ابن سهل :نشر تهامي الزموري هسبريس : العدد XIV - 1973 : 98.

84 - ابن حيان : المرجع السابق : شماليتا 36.

85 - نفسه : نشر الحجي : 143.

86 - ابن خلدون: العبر : ج 4 : بولاق 1284 هـ : 137.

87 - الضبي : المرجع السابق : 432.

88 - ابن الفرضي : المرجع السابق : 114.

89 - نفسه : 275.

الطرطوشي[90] أن أحدهم " شهد عليه بالزندقة فحبسه المنصور مدة مع جماعة من الادباء من وجوه قرطبة مرموقين بالانهماك والزندقة " . كما أنفذ التوصيات الى أهل المملكة " بترك الجدل والخلاف والتشغب "[91] حتى اشتهر بكونه " أشد الناس في التغير على من علم عنده شيء من الفلسفة والجدل في الاعتقاد ، والتكلم في شيء من قضايا النجوم "[92] وهو نفس المصير الذي لقيه المسريون الذين تجرد لمحاربتهم القاضي محمد بن يبقى بن زرب ، فوضع كتابا " في الرد على ابن مسرة "[93] وجد في طلبهم " والكشف عنهم "[94] كما " أحرق بين يديه ماوجد عندهم من كتبه "[95] ولعل أبرز مظهر على الانكفاء الثقافي وسيادة التزمت الفكري ، اقدام المنصور على اتلاف وحرق ذخائر مكتبة الحكم المستنصر " تقبيحاً لمذهب الخليفة الحكم "[96] مع التركيز على " كتب الدهرية والفلاسفة ، بمحضر كبار العلماء ".[97]

نتيجة لذلك استرجع الفقهاء المالكيون ، مكانتهم السابقة في الدولة . ولم يتورعوا عن الصاق تهمة " الزندقة والكفر "[98] بالمرء عند أدنى بادرة منه للتفكير الحر. فعلى الرغم من أن عبد الوهاب بن منذر مثلا ، كان " ناسكا منقبضا عن الناس ، كثير الصلاة مذكرا بالله "[99] تعرض لاتهام " الفقهاء المالكين فتكلموا فيه "[100] بديهي اذا ، أن تصبح قرطبة من جديد قبلة للمتزمتين من الفقهاء، وأن تفتح في وجوههم الوظائف وخطط الدولة . فعندما ورد أحدهم من القيروان " نوه بمكانه ابن ذكوان وأجلسه في الجامع فنشر عمله وعلا ذكره ... وولي الشورى والخطبة والصلاة "[101] بعدما كان "لايؤبه بمكانه "[102] وبالمثل أصبح ابن المكوي المالكي" فقيها معظما ، ومفتيا مقدما على جميع

90- سراج الملوك : 144.
91 - ابن الخطيب : الاحاطة في اخبار غرناطة : م 1 ، القاهرة 1974 : 104.
92 - ابن عذاري : المرجع السابق : ج 2 : 292.
93 - النباهي : المرجع السابق : 78 ورد هذا النص كذلك عند ابن الفرضي : المرجع السابق : 95.
94- نفسه : 53 انظر كذلك النباهي : المرجع السابق 78.
95- نفس المصدر والصفحة .
96- ابن صاعد : طبقات الامم: بيروت : 1912 ، 66.
97 - ابن عذراي المرجع السابق : ج 2 : 93.
98 - الطرطوشي : سراج الملوك : 145.
99 - ابن بشكوال :المرجع السابق : ج 1 : 373.
100- نفس المصدر والصفحة .
101- ابن فرحون : المرجع السابق 346.
102- نفس المصد ر والصفحة .

من إليه الفتوى بقرطبة وانتهت إليه الرياسة "[103] وليس أدل على اهتمام المنصور بالمالكيين وتقريبهم من إصدار أمره بجمع" أقاويل مالك "[104] على غرار كتاب " الباهر" الذي جمعت فيه أقاويل الشافعي.

علل المؤرخون القدماء هذا الاضطهاد باعتباره " تقربا لقلوب العامة "[105] من طرف المنصور . فما أحرق مكتبة الحكم حسب ابن صاعد[106] الا " تحببا الى عوام الاندلس ". وهو ما أكده المقري[107] اذ قال :" كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت أنفاسه ، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ". وهو نفس التفسير الذي أخذ به معظم الدارسين .[108]

حقيقة أن القضايا التي تمحور حولها اهتمام المتكلمين والمعتزلة والفلاسفة عموما كانت بعيدة عن مس المشاكل اليومية المادية التي يعيشها العامة . ولا تدخل بالشكل الذي طرحت به في نطاق إدراكهم ، من ثم سهولة اثارتهم ضدها ، وهو مالاينطبق على التشيع والاتجاهات التي استطاعت النزول الى العامة وتلمس مشاكلهم ، ومحاولة قيادتهم. وتعتبر المسرية بهذا الصدد تجربة رائدة في جعل الاعتزال في متناول العامة، وتوظيفه لخدمة مصالحهم . من ثم يبدو أن أهداف الاضطهاد الفكري تتجاوز مجرد كسب مساندة العامة ،الى محاولة عزلهم عن الإتجاهات الثورية والمستنيرة ، قصد شلهم سياسيا وتحويل طاقتهم من مواجهة السلطة الى المشاركة في التصدي للقوى الحية . وإذا ما سلمنا بنجاح المنصور في هذه المهمة ، فالموقف الذي أصبح عليه العامة تجاه الفلسفة والفكر المستنير سيكون ناتجا عن الاضطهاد وليس مسببا له.

وعلى عكس مايفهم من النصوص السابقة ، فشلت الحجابة العامرية في كسب ود العامة ، وجرهم الى تبني ومباركة مشاريعها السياسية والايديولوجية . وتقدم المصادر العربية القديمة معلومات

103– الحميدي : المرجع السابق 123.

104– نفس المصدر والصفحة.

105– المقري : المرجع السابق :ج 1 : 221.

106– المرجع السابق : 66.

107– المرجع السابق :1 : 221 ، انظر كذلك الضبي : المرجع السابق : 119 – 20.

108– انظر على سبيل المثال : احمد بدر: الاندلس وحضارتها عصر الخلافة : دمشق 1974 : 34 . بلنثيا : المرجع السابق : 12– 13 خالد الصوفي :العرب في اسبانيا حلب 1963 : 232.

ضافية عن معاداة العامة للحجابة العامرية ، ولرموزها من الساسة والجند والفقهاء على السواء. وليس أدل على ذلك من نص أورده النباهي[109] بالقول :" امتحن ابن زرب ، على فضله مع عوام الناس بقرطبة ... ولهجت العامة بذم القاضي ، واستبطاء الرحمة بوسيلته وأطلقوا ألسنتهم بالطعن في دينه ، ووصفه بالركون الى ابن أبي عامر ... فلما تكرر بالإستسقاء وابطاء الغيث هاجت العامة في بعض بروزه الى الربض وثارت فاجتمعوا اليه بعد اتمامه الصلاة ، يطعطعون وينكتونه بمعابه ويقولون له :بئس الوسيلة أنت الى الله والشفيع في إرسال الرحمة اذ أصبحت إمام الدين وقيم الشريعة ثم لاتتورع عن قبول مايرسل اليك من الهدية التي لاتليق الا بالجبابرة .وأبدوا في ذلك وأعادوا وهموا أن يبسطوا اليه أيديهم ويمتهنوه حتى لاذمنهم ... وأرسل الى صاحب المدينة يستغيثه فأرسل الفرسان والاشراط الى ناحيته ، فكشفوا عنه ماكان قد تلفف به من العامة وفرقوهم ".

من المفيد التذكيرَ بالدور الفعال الذي لعبه القاضي بن زرب هذا في محاربة اتباع ابن مسرة و "أهل البدع " ، وبمكانته في الدولة وبين أترابه من الفقهاء . لذا فالطعن في دينه ، وانكشاف أمره ، لدليل على وعي العامة بحقيقة الأرستقراطية الدينية ، والمتزمتين من الفقهاء المالكيين . ولايستبعد أن يكون المضطهدون من اتباع ابن مسرة ، وغيرهم ممن طالهم لسان وسيف الفقهاء ، وراء هذا التحرك .

نخلص الى أن عصر الخلافة ، بما تميز به من انفتاح ورقي اجتماعي وازدهار حضاري ، يقدم حقلا نموذجيا لمعاينة قدرة الاتجاهات الفكرية العقلانية والمستنيرة على النفاذ الى أوسع الجماهير . واستعداد العامة في اطار مناخ ثقافي متحرر ، لتجاوز سذاجتها والتحرر من التقليد والتعصب ، ومعانقة الفكر الفلسفي .

109- المرجع السابق : 78 – 79.

لائحة المصادر

1 - ابن الابار :

أ - الحلة السيراء : تحقيق حسين مونس :القاهرة 1963 - 1964.

ب - كتاب التكملة لكتاب الصلة : تحقيق عزت العطار الحسيني : القاهرة 1956.

2 - ابن بسام : الذخيرة : تحقيق احسان عباس : الدار العربية للكتاب : ليبيا تونس 1981.

3 - ابن بشكوال : كتاب الصلة : الدار المصرية للتاليف والترجمة " القاهرة 1966.

4 - ابن حزم :

أ - طوق الحمامة في الالفة والالاف : دمشق 1349 هـ.

ب - جمهرة انساب العرب : تحقيق ليفي بروفنسال : القاهرة 1948.

ج - الفصل في الملل والاهواء والنحل : بيروت 1975.

د - الاحكام في اصول الاحكام : القاهرة 1345 هـ.

هـ - الرسائل : تحقيق احسان عباس : المؤسسة العربية للدراسات والنشر : الطبعة الاولى : بيروت 1981.

5 - ابن حيان : المقتبس :

أ - قطعة عبد الرحمن الحجي : بيروت 1965.

ب - قطعة شاميتا /كورينطي / صبح : المعهد الاسباني العربي للثقافة : مدريد 1979.

6 - ابن خاقان : مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلس : القاهرة 1352 هـ.

7 - ابن خلدون : كتاب العبر : طبعة بولاق : 1284 هـ.

8 - ابن الخطيب :

أ - اعمال الاعلام : نشر ليفي بروفنسال : رباط الفتح 1934.

ب - الاحاطة في اخبار غرناطة : القاهرة 1984.

9 - ابن سهل : النوازل : نشر التهامي الزموري : مجلة هسبريس : العدد 14: 1973.

10 - ابن صاعد الاندلسي : طبقات الامم : بيروت 1912.

11 - ابن عذاري " البيان المغرب : تحقيق بروفنسال / كولان : بيروت 1980.

12 - ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب : مطبعة المعاهد : القاهرة 1351 هـ.

13 - ابن الفرضي " تاريخ علماء الاندلس : القاهرة 1966.

14 - الحميدي : جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس : تحقيق محمد بن تاويت الطنجي: القاهرة 1952.

15 - الخشني : قضاة قرطبة : المكتبة الاندلسية : القاهرة 1966.

16 - الزجالي : امثال العوام بالاندلس : تحقيق لبنشريفة : فاس 1971 - 1975.

17 - الضبي : بغية الملتمس : تحقيق كوديرا / ريبيرا : مدريد 1884.

18 - الطرطوشي :

أ - سراج الملوك : الطبعة الازهرية القاهرة 1319 هـ.

ب - الحوادث والبدع : تحقيق محمد الطالبي : تونس 1959.

19 - المسعودي : مروج الذهب : القاهرة 1938.

20 - المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم : ليدن 1906.

21 - المقري : نفح الطيب : تحقيق احسان عباس : بيروت 1968.

22.- النباهي : تاريخ قضاة الاندلس :نشر بروفنسال : القاهرة 1948.

23 - احمد بدر : الاندلس وحضارتها : عصر الخلافة :دمشق : 1974.

24 - انخل جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي : ترجمة حسين مونس : القاهرة 1955.

25 - خالد الصوفي : تاريخ العرب في اسبانيا : حلب 1963.

26 - محمد عبد الله عنان : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الاندلسية : القاهرة 1958.

27 - محمد عابد الجابري: نحن التراث : دار الطليعة : الطبعة الثانية :بيروت 1982.

28 - محمدعمارة : الخلافة ونشاة الاحزاب السياسية : المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1977.

29 - Asin Palacios : Ibn Massarra y suEscuela obras escogidas :Madrid 1946

المناخ الثقافي والتطورات الفقهية بالأندلس

خلال عصر الطوائف

البحث في الأصل مساهمة في الندوة التي نظمتها كلية الآداب بالرباط بتعاون مع مجلة المناظرة حول : "الخصائص المنهجية للفكر الأندلسي المغربي".

من المتعارف عليه لدى المهتمين بالفكر الاندلسي ، أن القرن الخامس الهجري يمثل الذروة على مستوى النشاط الثقافي . خلاله تمكن الاندلسيون من العطاء بغزارةفي الادب واللغة ، وفي الفلاحة والنبات ، وفي الطب ومختلف علوم الاوائل ، وفي الكلام والتصوف والتاريخ ، فضلا عن الوثائق والنوازل والاحكام ، وغير ذلك من مجالات العلم وحقول المعرفة . ومن الملاحظ أن ماتكرس من تصورات بهذا الخصوص يرتكز اساسا على حجم ما ساهم به هذا القرن كما وكيفا في المكتبة الاندلسية ، التي مافتئت تثير اعجاب وتقدير الباحثين شرقاوغربا .وعلى الرغم من تألق هذا العصر بالمقارنة مع القرون اللاحقة ، يبدو ان ثمة خللا في التقدير نتج من جهة عن اقتصار الدارسين على استنطاق المظاهر ، والاحجام عن النفاذ الى عمق الميكانيزمات المتحكمة في الوضع الثقافي . ومن جهة اخرى عن سوء تقدير وقع الانتكاسة الثقافية التي ترسخت مع تسلط الحجابة العامرية ، واستمرت حلقاتها في تصفية ما تبقي من مظاهر الحوار والتفتح الثقافي طوال عصر الفتنة .ولعل في اتلاف ذخائر مكتبة الحكم المستنصر الذائعة الصيت ، وتعقب مصنفات الاندلسيين بالاحراق والاتلاف، وضياع معظم ماصنف الى حدود نهايات القرن الرابع الهجري ، مايساهم في الابقاء على القرن الخامس شامخا في تصورات المعاصرين ، وما يضع عراقيل حقيقية امام مقاربة الوضع الثقافي خلال العصر السابق ، الذي يبدو من خلال عدد من المؤشرات اكثر تألقا وتعبيرا عن شموخ الثقافة العربية الاسلامية الوسيطة .

ومما ساهم في تكريس التصورات السابقة ونقلها الى مستوى الحقائق لدى المعاصرين، اقتصار الدارسين لقضايا الفكر على رصد ميكانيرماته الداخلية ، والتعريف بتجلياته المختلفة ، وتتبع حلقاته ، وتفكيك النصوص التي خلفها في مختلف فروع المعرفة . حقيقة أن الفكر الاندلسي مازال ، في ثرائه وتنوعه وغزارته ، بحاجة الى مزيد من العناية بهذا الخصوص ، الا ان الاستمرار في عزل النشاط الفكري عن محيطه الاجتماعي والتاريخي ، كفيل بالابقاء على بعض المتاهات أمام البحث المعاصر في الفكر الاندلسي .

ويبدوان تجاوز مستوى القراءة فيما تقدمه الحوليات التاريخية ، الى التأمل في الثروة الهائلة والمتنوعة التي تزخر بها المصنفات في بقية حقول المعرفة ، كفيل بالكشف عن عمق وشمولية التحول الذي مس مختلف مجالات الحياة بالاندلس ،ان لم يكن بمجموع الغرب الاسلامي ، خلال القرن الخامس الهجري . فبانهيار نظام الخلافة انفرطت وحدة البلاد وتشتتت الى مجموعة متناحرة من الامارات الاقليمية والممالك الطائفية . بل حتى على المستوى المحلي ، عديد هم المتنفذون وقواد الجند الذين انتزوا بمناطقهم وتحصنوا بالقلاع مشهرين التمرد والعصيان . نتيجة لذلك ، لم يعد بمقدورالاندلس الاحتفاظ بدورها السابق كقوة متحكمة في شرايين المواصلات عبرالعدوة المغربية الى بلاد السودان جنوبا ، وعبر الممالك المسيحية والابواب [1] الى الارض الكبيرة شمالا . كما تخلت تدريجيا عن هيمنتها على الملاحة البحرية في ساحل بحر الظلمات ، وبالحوض الغربي للبحر المتوسط ، وعن مكانتها كمركز للقرار السياسي والعسكري والدبلوماسي بمجموع المنطقة . أفضى الفراغ الناتج عن هذا الانهيار الى تصاعد نجم قوى جديدة : المرابطون في الصحراء، والقشتاليون في الشمال ، التي بقدرما عملت على الامساك بزمام المبادرة على جميع المستويات ، بما في ذلك المستوى الفكري والمذهبي ،بقدرما تنافست للهيمنة على الاندلس التي غدت الحلقة الاضعف . جميع المؤشرات تصب في اتجاه ابراز القرن الخامس الهجري كمرحلة تحولات كبرى بالمنطقة ، وكفاصل بين عصرين متمايزين.

لم يخف أهل القلم المعاصرون لهذه التحولات، عمق ما اصابهم من أسى وخيبة أمل مما آلت اليه أوضاع الفكر والثقافة . ففي رسالة لابي الاصبغ بن أرقم[2] يخاطب احد زملائه يقول :" فاندب العلم واهله ،وارثه وحامليه وابك رسومه ، وحي طلوله ، وسلم عليه تسليم وداع ". وهو نفس الرأي الذي عبر عنه ابو محمد بن عبد البر النمري[3] بقوله :" فكيف وقد درس الاعلام والكدى، وانتزع

1 – المقصود بالابواب في المصادر العربية القديمة ، الممرات عبر جبال البرانس المشهورة شمال شبه جزيرة ايبريا التي يعبر منها الى اروبا القارية المعروفة باسم الارض الكبيرة . انظر على سبيل المثال:احمد الرازي : وصف الاندلس :مجلة الاندلس : المجلد 18: 1953 : 60 ولمزيد من التفاصيل عن مدى كثافة الرحلة المتبادلة بين الاندلس واروبا عبر هذه البواب خلال عصر الخلافة انظر

E.ch dufaurcq: l'espagne chretienne au moyen age armand colin Paris 1976 pp 53-58

2 – وهوعبد العزيز بن محمد بن ارقم النميري الواد ياشي ، اقام بدانية مدة عند اقبال الدولة علي بن مجاهد ثم عند المعتصم بن صمادح الذي توجه عنه رسولا الى المعتمد بعد 460 هـ انظر : ابن بسام : الذخيرة: تحقيق احسان عباس : الدار العربية للكتاب : ليبيا – تونس :1981 : ق 3 م 1 : 369.

3 – نفس المصدر : ق 3 م 1 : 134 وهو الوزير الكاتب ابو محمد عبد الله بن الفقيه ابو عمر بن عبد البر النمري ، وتوفي حسب ابن بسام سنة 474 هـ

العلم بقبض العلماء فانقضى". وبالمثل، فالاندلس منذ انهيار الخلافة ، قد "اجدبت من المعارف حسب ابن خاقان[4] ولم يجد غيره [5] بدا من التوجه" الى الله بالشكوى في دثور العلم وتالب الجهلاء". لم يكن ابو عامر بن شهيد اقل وضوحا في الكشف عما آلت اليه أوضاع المشتغلين بالعلم والثقافة اذ قال :" ترى الفهم بائر السلعة ، خاسر الصفقة يلمح بأعين الشنآن ويستثقل بكل مكان "[6] لاغرابة في ذلك مادامت "سوق الادب قد كسدت وجمرة السلطان قد همدت "[7] وهو الوضع الذي افصح عنه شيخ المؤرخين ابو مروان بن حيان بخصوص حضرة قرطبة التي "آمحى لذلك رسم الادب بها ، وغلب عليها العجمة وانقلب اهلها من الانسانية المتعارفة الى العامية الصريحة "[8] وتزخر المصادر الاندلسية بآراء وشهادات غير هولاء من كبار أهل القلم[9] التي تصب في هذا الاتجاه معبرة عن نفس المنحى .

وطوال القرون اللاحقة عديد هم الذين افصحوا عن تأسيس الانحطاط وزرع بذور التراجع الفكري خلال هذا العصر . "فاذا حل دخول القرن الخامس اشتد البلاء باهل الاسلام خاصة فيما بينهم فان الكل على الكل ،في القريب والبعيد والمولي عليهم ، بعضهم لبعض فتنة وبعضهم على بعض نقمة ،بفساد دينهم ودنياهم وعيشهم" حسب ابن عباد الرندي[10] ومنذ هذا التاريخ لم تتوقف عجلة الانحطاط ومسار التردي ، حسب تأكيد الفقيه المالكي الشهير ابن فرحون [11] اذ قال :" وبقيت الحال هكذا فماتت العلوم الا عند احاد الناس واستمرت القرون على موت العلم وظهور الجهل" . ويبدو ان الجناح الشرقي من دار الاسلام لم يكن بمعزل عن هذه التطورات، كما يكشف عن ذلك ابو حيان

---

4 - مطمح الانفس ومسرح التأنس : تحقيق محمد علي شوابكة :دار عمار: بيروت 1983: 297.

5 - ابن بسام : المصدر السابق : ق 3م 1 : 203.

6 - نفس المصدر : ق 1 م 1 : 212. وهو ابوعامراحمد عبر الملك ابن شهيد .

7 - نفس المصدر : ق 1 م 1 : 488.

8 - نفس المصدر : ق 1 م 1 : 67.

9 - نخص منهم بالذكر ابن حزم ، انظر آراءه بهذا الخصوص في : نفس المصدر: ق 1 م 1 : 173 ، وكذلك لدى ابن خاقان : المصدر السابق : 282 وفي رسائل ابن حزم الاندلسي : تحقيق احسان عباس : المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت :1981:ج 3 : 123 - 24 وكذلك الفقيه ابو مروان ابن سراج : انظر : ابن خاقان : قلائد العقيان :طبعة 1284 ص 156ص 188.

10 - الرسائل الصغرى : تحقيق الاب بولس نويا اليسوعي :دار المشرق : بيروت 1986 : 99 - 100.

11 - الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب : تحقيق محمد الاحمدي ابو النور دار التراث للطبع والنشر القاهرة : ج 1 : 1972: 383.

التوحيدي[12] في نص بالغ الدلالة عن وحدة الظاهرة على صعيد العالم الاسلامي .ولعل في هذه الملاحظات مايدعو الى اعادة التأمل وتعميق النظر فيما تكرس لحد الآن وشاع في مختلف الدراسات عربية واجنبية حول الازدهار الهائل للثقافة والعلوم بالاندلس خلال هذا العصر .

ومن الظواهر الملفتة للانتباه، شيوع البطالة في صفوف اهل القلم، التي طالت الى جانب المغمورين ومتوسطي الحال ،كبار ادباء العصر. يكشف عن ذلك ابن زيدون[13] في وصفه "ماتقتضيه العطلة من اظلام الخاطر،وصدإ النفس". وهو ما أكده ابو حفص بن برد الأصغر[14] بقوله: ان " اقلامنا يومئذ في عطلة ومحابرنا في عقلة ". وبالمثل تحدث ابو القاسم بن الجد عن أحد اصدقاءه ممن" ألقت عليه العطلة ثقل جرانها "[15] وعمن "دفعته الايام.. الى التقلب في الاقطار والتكسب بالاشعار"[16] عديد هم الذين تحت وقع قساوة هذه الظروف، لم يتورعوا عن التذلل والمحاباة لاهل الرياسة والمتنفذين، قصد النيل من بعض نعمهم. فكم من عالم أوفقيه أوشاعر" اضطره كلب الحرمان، ونوب الزمان الى اعتماد الكرام واسترفاد الاعيان"[17] حتى غدت رسائل التشفع وطلب التدخل لدى المتأمرين، لونا أدبيا متميزا ضمن نصوص القرن الخامس النثرية[18] بلغت وطأة هذا الذل على أهل القلم ان جادت قريحة امام وقته في الاقراء[19] بشعر كاشف عن التردي وسوء الوضع اذ قال :

" قد قلت اذ ذكروا حال الزمان وما ... يجري على من يعزى الى الآدب
لاشيء أبلغ من ذل يجرعه ... أهل الخساسة أهل الدين والحسب "

---

12 – اذ قال :" ...حتى كأن اوطان المعرفة قد خلت من سكانها ، ومنازل العبادة قد خلت من قطانها ،وحتى كان القدرة مع بدوها خافية ، والحوادث مع تكررهامتجافية . اين العقول الصاحية اين الاذهان المتوافية اين الالسن الفصيحة اين الاخلاق السجية اين الايدي المبسوطة اين الخيرات اين التواصي بالنصائح العظات اين ا لاقبال ..اين الخوض في استبانة المعارف ..." الاشارات الالهية تحقيق الدكتورة وداد القاضي : دار الثقافة بيروت الطبعة الثانية 1982 : 94.

13 – ابن بسام : المصدر السابق : ق 1 م 1 : 403.

14 – نفسه : ق 1 م 1 : 488.

15 – نفسه : ق 2 م 1 : 308.

16 – نفسه : ق 2 م 1 : 311.

17 – نفسه : ق 2 م 1 : 309.

18 – انظر على سبيل المثال نفسه : ق 2 م1 : 307 – 311 ، وكذلك الرسالة الواضحة في هذا المعنى التي كتبها الشاعر والوزير الشهير ابن زيدون الى ابن مسلمة كي يتدخل لصالحه لدى سلطات اشبيلية قصد الحصول على وظيفة ، انظر نفسه : ق 1 م1 : 403 – 404.

19 – وهو ابو عثمان بن سعيد عثمان المتوفى سنة 444 هـ ، انظر الضبي ، بغية الملتمس : دار الكتاب العربي القاهرة 1967 : 412.

وتقدم كتب التراجم والطبقات فيضا من المعلومات بخصوص ما لهذا الوضع من تاثير على تكثيف الهجرة والتردد على الآفاق في اوساط اهل القلم ، بداخل الاندلس بين حواضرها[20] ونحو بلاد المغرب[21] والمشرق[22] وافريقية [23] ولقد كشف ابن حزم [24] عما كان لـ "نبو الدياروالجلاء عن الاوطان .. والغربة في البلاد "، من دور في تجميد العديد من الطاقات الفكرية ،ومن سلبيات على المناخ الثقافي العام بالاندلس . في حين لم يجد البعض بدا امام ما اصابته" به صروف الايام ، من الامتهان والائتلام "[25] متخليا بذلك عن نشاطه الفكري للانغماس في غمار العامة . وبالمثل فكم من اديب تالق نجمه في سماء الخطط الادارية ثم "سقط سقوط الطائر المقصوص .. وتحرف قاعدا حينا وحينا على قدم ".[26]

إن في هذا الوضع ، ما يفسر تزاحم بعض اهل القلم على ابواب القصور لعرض خدماتهم ، وتنافس الادباء على كسب ود المتامرين والتزلف الى السلاطين ، حتى غدا المديح - كما هو معروف- المعلمة البارزة ضمن ماابدعه شعراء عصرالطوائف .وفي نص للشقندي ما يكشف بوضوح تام عن هذه الحقيقة اذ قال : "سمعت عن الملوك العربية : بنو عباد وبنو صمادح وبنو الافطس وبنو ذي النون وبنو هود كل منهم قد خلد فيه من الامداح مالو مدح به الليل لصار أضوأ من الصباح"[27] وتقدم كتب التراجم لوائح مستفيضة باسماء من كان "ينتجع الملوك "[28] "ويقصدهم .. بالمدح"[29] والمعلومات ضافية بخصوص من قدم الاندلس من صقلية [30] والقيروان[31] وغيرهما من

---

20 - انظر على سبيل المثال : ابن بشكوال : الصلة : الدار المصرية للتاليف والترجمة : 1966 : ق 1 : 167- 68 ، 177 - 78 ، 186 ، 220 وكذلك ابن بسام المصدر السابق ، ق 1 م 1 : 97 - 98 وابن فرحون : المصدر السابق : ج 2 ، 105 - 106.

21 - انظر ابن سهل : الاحكام الكبرى : مخطوط المكتبة العامة : الرباط رقم 838 ق : 183.

22 - الضبي : المصدر السابق : 241.

23 - نفس المصدر : 240 ، انظر كذلك ابن سهل : المصدر السابق : 189.

24 - المصدر السابق : ج 1: 309.

25 - ابن بسام : المصدر السابق : ق 3 م 1 : 129.

26 - ابن خاقان : المطمح : 350.

27 - المقري : نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب : تحقيق احسان عباس دار صادر : بيروت 1968 : ج 3: 190.

28 - الضبي : المصدر السابق : انظر كذلك الحميدي : جذوة المقتبس : الدار المصرية للتاليف والترجمة : 1966 : 405.

29 - الضبي : المصدر السابق : 538.

30 - نفسه : 297.

31 - نفسه : 425.

البلدان فـ " مدح ملوكها وتقدم عند كبرائها بفضل أدبه وحسن شعره "[32] بلغ الشره ببعضهم ان حدد "صلته على القصيدة ..في مائة دينار ، ولا يمدح أحدا الا بهذا الشرط "[33] ومن الشعراء المغمورين على عكس ذلك من "لا يتعدى صلة الدرهم والدرهمين "[34] ومنهم من كان يستجدي الى حد التسول" ويشكو الفقر في اشعاره حتى اعياه ذلك "[35] ولاغرو ، فكم من شاعر"كان من الاقلال في غاية ، ومن قلة ذات اليد في نهاية "[36] مما حذا ببعض الغيورين من الادباء الى انتقاد هذا المنحى المخل بأصالة هذا الشكل من الابداع الادبي بقوله :

" الموت أولى بذي الآداب من أدب   يبغي به مكسبا من غير ذي ادب

مادهى الشعر عندي سخف منزلة   بل سخف الدهر باهل الفضل منقلب "[37]

من الطبيعي في ظل هذه الاوضاع أن يتم تهميش ذوو الكفاءات ، وينفسح المجال امام المحابين ومنتهزي الفرص . يذكر صاحب المسهب[38] ان خرازا " مدح الاعيان فاشتهر اسمه "، فصار شاعرا معروفا . ومنهم من "كان من غرائب الدهر أميا لايفهم ولايقيم حرفا سويا "[39] فنال الحظوة لدى الملوك . وفي نص دال لابن حيان [40] مايؤكد ذلك ،اذ قال متحدثا عن أحدهم :" كان قد ركض في حلبة كتاب الرسائل وقلد جملة من تدبير الاعمال الجلائل من غير معرفة "، حتى غدت سياسة "استكتاب الجهلة ، والاستعانة بالضعفة واستكفاء العجزة ممن قلت معرفته "[41] سنة متبعة لدى معظم ملوك الطوائف . انعكس ذلك على المستوى الاخلاقي ،بتبادل النقمة بين اهل القلم ، وغلبة مشاعر الحقد والحسد[42] وشيوع "الدعاوى في الناس والنفاق "[43] واستفحال الوشاية ، التي كثيرا

32 - نفسه : 297.

33 - ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب : تحقيق شوقي ضيف : دار المعارف الطبعة الثالثة : 1978 : ج 1: 400 ، انظر كذلك بهذا الخصوص : المقري المصدرالسابق ج 3 ، 19، وكذلك ابن بسام : المصدر السابق : ق 3 م 1 : 336.

34 - ابن سعيد : المصدر السابق : ج 1 : 336.

35 - ابن بسام : المصدر السابق : ق ق 1 م 2 : 740.

36 - نفسه ق 1 م 2 : 788.

37 - المقري : المصدر السابق : ج 3 : 190.

38 - انظر ابن سعيد : المصدر السابق : ج 2 : 79.

39 - ابن بسام: المصدر السابق : ق 3 م 1 : 415.

40 - انظر نفسه : ق 1 م 2 : 588.

41 - نفسه : ق 1 م 1 : 106.

42 - نفسه : ق 3 م 1 : 370.

43 - نفسه : ق 3 م 1 : 194.

ما افضت الى الاطباق في السجون وسفك الدماء . وفي رسالة احدهم الى بعض اصدقائه ما يكشف عن مناخ التربص وانعدام الثقة اذ خاطبه بالقول " واعلم انك الواقع عليه معنى الصديق ، على انه في هذا الزمن كالعدم ، الا في الكتب والكلم".[44]

مع ذلك لم ينعدم ذوو الهمم الذين وقفوا بحزم ضد الاحتواء والتردي ، نخص منهم بالذكر تمام بن غالب اللغوي الذي رفض اضافة عبارة "مما ألفه تمام بن غالب لابي الجيش مجاهد "[45] في مقدمة كتابة اللغوي، مقابل "الف دينار أندلسية "[46] قائلا :" والله لو بذلت الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب فاني لم اجمعه له خاصة ، لكن لكل طالب عامة "[47] ولعل في قول احدهم ،" فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها "[48] ما يكشف عن قلة مثل هذه المواقف وشذوذها عن قاعدة التزلف والمحاباة . ولاغرو ، فالتفقير والمصادرة [49] ان لم يكن السجن [50] والاغتيال[51] كثيرا ما طال معظم من فضل السباحة ضد التيار . ذكر ابن سعيد [51] أحدهم ممن" اقتات بما يرميه الناس من البقول وما اشبه ذلك ولا ينحط الى مسألة احد" وبالمثل ،فلما حدثت لامام اللغة ابن سيدة الذائع الصيت بنوة مع " اقبال الدولة خافه فيها وهرب الى بعض الاعمال المجاورة "[52] وكادت أن تزهق روح المؤرخ الكبير ابو مروان بن حيان نظرا لنزاهته وصدق لسانه وموضوعية قلمه لولا تدخل أحدهم لدى عبد الملك بن جهور بالنصيحة قائلا :" اتريد أن يضرب بنا المثل في سائر البلدان باننا قتلنا شيخ المؤرخين ببلدنا تحت كنفنا ".[53]

الا أن اخطر تطور علي الاطلاق يكمن في تمكن الرؤساء والمتنفذين من احتواء الفتوى والقضاء، وشراء ضمائر العديد من الفقهاء . كشف عن ذلك ابن حيان[54] في نص بالغ الدلالات

---

44 – نفس المصدر والصفحة .

45 – ابن بشكوال : الدار المصرية للتاليف والترجمة : 1966 : ق 1 : 120.

46 – نفس المصدروالصفحة ، انظر كذلك ، الحميدي : المصدر السباق : 182.

47 – ابن بشكوال : المصدر السابق : 120.

48 – الضبي : المصدر السابق : 252.

49 – انظر على سبيل المثال : ابن بشكوال :المصدر السابق : ج 2 : 558 – 59.

50 – نفسه : ج 1 : 5.

51 – نفسه : ج 2 : 651.

52 – الضبي : المصدر السابق 418.

53 – ابن سعيد : المصدرالسابق ، ج 1 : 117.

54 – انظر :ابن بسام الذخيرة : ق 3 م 1 : 180.

إذ قال :" ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم ، هم كالملح فيهم الامراء والفقهاء ، قلما تتنافر اشكالهم بصلاحهم يصلحون ، وبفسادهم يردون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا هذين بما لاكفاية له ولا مخلص منه ،فالامراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذيادا عن الجماعة، وحوشا الى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صروف عما اكد الله عليهم في التبيين لهم قد اصبحوا بين آكل من حلوائهم خائض في أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية في صدقهم ، وأولئك هم الاقلون فيهم " . ولم يكن ابن سهل اقل وضوحا في قوله متحدثا عن تحكم امراء الطوائف في الفقهاء ،آنهم "في هذا الوقت يؤثرون من مالت اهواءهم اليه وان كان جاهلا ، ويقصون من انحرفت نفوسهم عنه وان كان عالما "[55] لذلك لم يتردد احد الفقهاء ممن تتلمذ على يد ابي عمران الفاسي ، وممن اشتهر بالتقوى والورع ان نعت قضاة ومفتي عصره باللصوصية ، مؤثرا التخلي عن تدريس الفقه ،و" تركه لما رآهم نالوا بذلك الخطط والعمالات وقال صرنا بتعليمنا لهم كبائع السلاح من اللصوص "[56] ويقدم ابن حزم[57] مزيدا من التفاصيل المدققة والكاشفة عن معاينة هذه الحقائق ، إذ قال :"شهدنا نحن قوما فساقا حملوا اسم هذا التقدم في بلدنا وهم ممن لايحل لهم أن يفتوا في مسألة من الديانة ولايجوز قبول شهادتهم . وقد رايت ان بعضهم وكان لايقدم عليه في وقتنا هذا احد في الفتيا ، وهو يتغطى الديباج الذي هو الحرير المحض لحافا ويتخذ في منزله الصور ذوات الارواح من النحاس والحديد تقذف الماء امامه ويفتي بالهوى للصديق فتيا ، وعلى العدو فتيا ضدها ، ولا يستحيي من اختلاف فتاويه على قدر ميله الى من افتى وانحرافه عليه ، شاهدنا نحن هذا منه عيانا ، وعليه جمهور اهل البلد ، الى قبائح مستفيضة ، لانستجيز ذكرها لاننا لم نشاهدها". وهي نفس القناعة التي عبر عنها لاحقا القاضي أبو بكر بن العربي،وتناقل فقهاء المالكية بعده أصداء ما حدث خلال القرن الخامس من " مصائب نزلت بالعلماء في طريق الفتوى "[58] واعتبروه القرن المعني في الحديث النبوي " اتخذ الناس رؤساء جهالا فافتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا ".[59]

---

55 - ابن سهل : المصدر السابق : 325 - 26.

56 - ابن بشكوال : المصدر السابق : ق 2 : 376 ، انظر كذلك : ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة السفر 8 : القسم 2 :545.

57 - الاحكام في اصول الاحكام : تقديم إحسان عباس : منشورات دار الافاق الجديدة الطبعة الثانية : بيروت 1983: م 2 : ج 6 : 167.

58 - ابن فرحون : المصدر السابق : ج 1 : 382.

59 - نفس المصدر والصفحة .

وتقدم كتب الاحكام والنوازل الفقهية ، معلومات مستفيضة عن قضاة بلغ بهم الجشع أن تسوروا على اموال واملاك الغير ، ولم يتورعوا عن السطو على "أرض بيت مال المسلمين "[60] كما تناولت بالحديث غير هؤلاء ممن "ينتمي الى الفقه توسل الى بعض خدمة السلطان راغبا في أن تقصر عقد الوثائق وكتابها عليه خاصة فاجابه السلطان الى ذلك وعهد الى من ببلده الا يعقد احد وثيقة إلا هذا المتفقه"[61] بما يكشف عن التواطؤ بين السلطتين لفسح المجال واسعا امام الغضب والتزوير .

وتقدم وثائق العصر الفقهية التفاصيل عن اكثر من عقد "مدلوك مصنوع مدلس مستراب "[62] وعن العديد من التجاوزات في تطبيق المسطرة القضائية ، باكثر من منطقة بالاندلس[63] ولعل في كثرة وتنوع نوازل الغصب والتسور على أملاك الغير ، وافرادها بالفصول والابواب في كتب الاحكام المتعلقة بهذا العصر ، ما يؤكد مخاطر هذا التحول العميق على راس القرن الخامس ، في اتجاه تهميش التشريع ، والشروع في افراغه من مضامينة التي ترسخت طوال القرون السابقة .

ولعل فيما حدث من خلل وتراجع في سلطات القضاء ، وفقدان ممارسيها لكل مصداقية ، ما أدى الى اتساع ظاهرة رفض وهروب الفقهاء وتملصهم من ولاية هذه الخطة طوال عصر الطوائف . فلما دعي احدهم الى "قضاء طليطلة ابى وهرب من ذلك "[64] وبالمثل فلما عزم المقتدر بالله ان يولي احدهم " الاحكام بسرقسطة ابى وحلف الا يقبلها "[65] ومنهم من تضرع لله ان يصاب بالعمي ليخلص من الحاح " محمد بن جهور ان يوليه القضاء بقرطبة "[66] ولما دعي غيره الى قضاءها " صرف الرسول على عقبية وانتهره "[67] وباشبيلية ضغط على احمد بن منظور كي يتولى أحكامهم" فعزم على الخروج عن بلدهم حتى سكتوا عنه "[68] كما تهرب أحمد بن طاهر بدانية "وامتنع عن ولاية قضائها "[69] وبمرسية ، لم يجد ابو علي الصدفي بدا عن قبول" قضائها على كره الى ان استخفى آخر

---

60 - ابن رشد: فتاوي بن رشد تحقيق المختار بن الطاهر التليلي دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1987 : ج 853:2.

61 - ابن سهل : المصدر السابق : 325.

62 - ابن الحاج : النوازل مخطوط المكتبة العامة الرباط : ج 55 : 161.

63 - ابن سهل : المصدر السابق : 4.

64 - ابن بشكوال : المصدر السابق : ق 1 : 168.

65 - نفسه ج 2 : 338 .

66 - نفسه : ج 2 : 609.

67 - نفسه : ق 1 : 156.

68 - نفسه : ق 1 : 31.

69 - نفسه : ق 1 : 76.

سنة سبع في قصة يطول ايرادها "[70] بينما اعتبر الاعفاء خلاصا ، فلما وصل احدهم من السلطان "كتابه بالعزل اشتد سروره و أعلن شكر الله عليه "[71] واتقاء لخطر الحبس ،لم يتردد الكثير ممن دعي للقضاء عن الهرب، و منهم من "اختفى وغيب وجهه مدة شهور"[72] ومن المعروف ان عديد هم فقهاء هذا العصر الذين تعرضوا للمضايقات والمتابعات ولكل اشكال القهر والامتحان[73] ينطبق نفس الشيء على بقية الخطط القضائية كالمواريث والاحباس[74] والشورى[75] والفتيا.[76]

وتزخر كتب التراجم والطبقات بمزيد من المعلومات الكاشفة عن شمولية هذه الظاهرة ليس فقط لبقية المدن والحواضر الاندلسية [77] بل كذلك لحواضر العدوة المغربية [78] ومصر[79] مما يكشف عن وحدة الظاهرة بهذا الخصوص كذلك ، على مستوى دار الاسلام مشرقا ومغربا . وادراكا من المخضرمين الذين عاينوا عمق التحول الذي طرأ على القضاء ابتداء من انهيار الخلافة الاموية وقيام الطوائف ، اعتبروا المطرف عبد الرحمن بن بشرقاضي الجماعة لبني حمود العلويين "خاتمة القضاة بقرطبة "[80] الذي "به اختتم كلمة القضاة بالأندلس على علاته "[81] لذلك كثيرا ما اصر ابو الوليد الباجي خلال القرن الخامس الهجري على مطالبة "الملك ان يشرف منزلة القاضي ويقوي سلطانه وينفذ حكمه في نفسه وولده واهله وفي جميع مملكته "[82] على ماكانت عليه الامور خلال عصر القمة والازدهار.

---

70 - المقري : المصدر السابق : ج 2 : 92.
71 - ابن بشكوال : المصدر السابق : ج 1 : 314.
72 - القاضي عياض :الغنية : تحقيق ماهر زهير جرار دار الغرب الاسلامي : بيروت 1982 : 131.
73 - انظر ابن بشكوال : المصدر السابق : اماكن متعددة .
74 - نفسه : ج 2 : 617.
75 - المقري : المصدر السابق : ج 2 : 239.
76 - القاضي عياض : المصدر السابق : 97.
77 - انظر نفسه : صفحات 118 ، 129 ، 130 وكذلك ابن خاقان : المطمح 215 - 16.
78 - القضي عياض : المصدر السابق : 123 - 24 ، 27 - 28.
79 - نفسه : 62 - 63.
80 - ابن سعيد : المصدر السابق : ج 1: ج 1: 158 والمقصود هنا بالمخضرمين معاصري عصري الخلافة والطوائف ، ومن ضمنهم شيخ المؤرخين ابو مروان بن حيان صاحب هذا الرأي .
81 - نفس المصدر والصفحة.
82 - أبو الوليد الباجي : فصول الاحكام : تحقيق محمد أبو الاجفان-الدار العربية للكتاب : 1985: 124.

ومن الملاحظ ، ان هذا المناخ الثقافي العام قد انعكس سلبا على الفكر الفقهي ، الذي تخلى عن جزء هام من قدراته الابداعية الاجتهادية ، ومال الى الانغلاق والتقليد ، الذي حدد مفهومه ابن حزم [83] في "اعتقاد الشيء لان فلانا قاله ممن لم يقم على صحة قوله برهان ". ولقد قدم ابن سهل[84] الدلائل الدامغة على" قلة العلم وتضييع الاجتهاد "خلال هذا العصر . وفيما بعد اكد الغبريني والونشريسي[85] في حوار بينهما "أنه لم يكن بمغربنا كله في القرن الخامس مجتهد في الاحكام الشرعية مستقل فيها برأيه " . ولم يعد معظمهم "ممن يتعنى بطلب دليل على مسائلهم"[86] على حد تعبير غيرهما .

وبينما يعتبر البعض[87] بان التقليد "بدعة عظيمة " حدثت " في القرن الرابع المذموم"[88] و"فشت وظهرت في القرن الخامس "[98] بعده ساطعة ، يغالي آخرون في نقده باعتباره "صفة ذميمة قد استطار شررها وعم ضررها "[90] واعتبروا أن كل" من ركن الى التقليد ولم يتأمل دلائل التوحيد سقط عن سنن النجاة "[91] لذلك تجرد البعض للتصنيف في" الرد على المقلدين "[92]. وللنظم في التحذير من مخاطره ، إذ قال أحدهم :

أوصيك يا من يطلب العلوما ان تعرف الموهوم والمعلوما

لاتقل بالميل للتقليد فذاك راي الكودن البليد[93]

وهو نفس الوصف الذي نعت به ابن عباد الرندي[94] المقلد باعتباره" المتفقه الغبي اذا قرع سمعه شيء من علوم التحقيق او علم من اعلام اهل التصديق ، يلوي خده ويقطب وجهه ويقول لفرط

83 - الاحكام في الفصول الاحكام : م 1 : ج 1: 40.
84 - انظر الونشريشي : المعيار المغرب : نشر وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية 1981: ج 9 : 149.
85 - نفسه : ج 9 : 278.
86 - ابن حزم: الاحكام : م 2 : ج 6 : 117.
87 - نفسه : م 2 : ج 6 : 146.
88 - ابن حزم :التخليص لوجوه التخليص : ضمن رسائله : المصدر السابق : ج 3 : 167.
89 - ابن حزم : الاحكام : م 2 :ج 6 : 146 .
90 - ابن عباد الرندي : المصدر السابق : 45.
91 - ابو القاسم عبد الكريم القشيري : الرسالة القشيرية : مكتبة مصطفى البابي الحلبي القاهرة: 3:1940.
92 - انظر الضبي :المصدر السابق: ص 153 وكذلك صفحة 300.
93 - ابن بسام :المصدر السابق : م 1 ق 2 : 924.
94 - المصدر السابق : 45.

غباوته : لو كان هذا حقا لنص عليه فلان ولتداولته القرون والازمان " .هكذا اقتصرت ثقافة هذا الصنف من الفقهاء والمفتين على حفظ "المدونة والمستخرجة "[95] ومعظمهم كان" مقلا من العلم مقلدا"[96] ولم يتجشموا حتى عناء الاطلاع على آراء كبار فقهاء عصرهم كأبي الوليد الباجي وابن حزم " لقلة استعمالهم النظر وعدم تحققهم "[97] على حد تعبير القاضي عياض .ورغم اختلافهما المذهبي ، يتفق الفقيهان ابن رشد[98] وابن حزم الظاهري[99] على منع اسناد ولاية الاحكام والفتوى لمن هذه صفته. بينما ينبه ابن فرحون[100] على ان "المنع من ولاية المقلد القضاء .. تعطيل للاحكام.. لاسبيل اليه في الشرع "، خصوصا في زمن قد خلى من الاجتهاد والمجتهدين . في حين طالب غيره بحد وسط بين الاجتهاد والتقليد ، مشترطا على الاقل الـ " قدرة على الترجيح بين الاقوال"[101] باعتبار ان ذلك غير معدوم في كل عصر.

وتكشف نوازل العصر عن التراجع الملحوظ الذي مس مضامين ومناهج التصنيف الفقهي ، الذي غدا سطحيا هزيلا . ولقد كان ابن رشد واضحا في تنبيهه على ان "الكتب المتاخرة ..لا توجد فيها رواية "[102] بلغ الاستخفاف بالعلم أن غدا المرء" يناظر في الموطأ ولم يسمعه على أحد ولا عنده منه كتابا صححه "[103] وهو ماأكده ابن حزم [104] في انتقاداته لمالكية عصره ، باعتبارهم " لا يشتغلون بحديث اصلا ، ولا بأثر" ، مؤكدا على انهم لا يحسنون "لارأيا ولاحديثاولاعلما من العلوم إلا الشاذ منهم "[105] كما افتقدت الدقة العلمية المتعارفة لدى السلف والتركيز المنهجي ، واقتصرت ثقافة العديد من المصنفين على "ايراد ما حفظه من قول من قبله يطيل مع ذلك فيخرج عن الغرض المقصود ".[106]

---

95 - انظر ابن حزم :رسالتان له اجاب فيها : ضمن رسائل ابن حزم :ج 3: 89.

96 - ابن بسام :المصدر السابق : ق 1 م 2 : 589.

97 - القاضي عياض :ترتيب المدارك :منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية المغرب : ج 8 : 122.

98 - فتاوي ابن رشد : المصدر السابق : ج 3: 1274 - 75.

99 - الاحكام : م 2 : ج 5 : 129.

100 - تبصرة الحكام : مراجعة طه عبد الرؤوف : مكتبة الكليات الازهرية : القاهرة 1986: ج 1: 27.

101 - نفسه :ج 1 : 26.

102 - ابن رشد : المصدر السابق :ج 3 : 1274.

103 - نفسه :ج 3 : 1275.

104 - رسالتان له اجاب فيها : المصدر السابق :ج 3 : 79.

105 - نفسه :ج 3 : 83.

106 - ابن بسام :الذخيرة : ق 1 م 2 : 589.

وعلى غرار شيوخهم ، وامعانا في الميل الى الدعة والكسل ،كثر الحاح طلبة العلم "مجتمعين ومفترقين "[107] عليهم كي يضعوا لهم في الفقه كتابا " كافيا مختصرا ليسهل حفظه ومعرفته والوقوف عليه والمذاكرة به "[108] بلغت الاستهانة وعدم الاكتراث أن "كان ابو الوليد هشام بن احمد الفقيه يقول : من أراد ان يكون فقيهامن ليلته فعليه بكتاب البريلي".[109]

هكذا تظافرت الجهود لاحباط الهمم على التنصيف وفقا للمقايس العلمية المتعارفة . يذكر الضبي[110] انه لما تجرد أحدهم ممن اشتهر بالحفظ والذكاء والانقباض عن السلطان ، ليصنف " كتابا في الشروط لم يسبق اليه... قيل له ان كتابك يعلم الخصام ويتعب الحكام فامسك عن إتمامه " ، مما يكشف عن قوة تيار التردي ، وسيادة العقلية المدرسية والتحجر الفكري . ان الوقوف على بوادر الميل نحو الاقتصار على الحفظ والذاكرة ، وتغييب بقية الملكات الفكرية ، والتركيز على المختصرات، وتهميش الامهات،على رأس القرن الخامس الهجري معناه الكشف عن جذور الانحذار الثقافي الذي طبع بدرجات متفاوتة القرون اللاحقة المصطلح على نعتها بعصور الانحطاط .

من الطبيعي في ظل هذا المناخ ان يتم الانكفاء عن روح الحوار البناء ، وعدم الالتزام بالقواعد المتعارفة في المناظرة والجدال ،لتبني اسلوب الشتم والتقريع.لم يتوقف الامر عند هذا الحد،بل تظافرت الجهود ، والملتمسات لدى الملوك والمتنفذين للتدخل بالسيف قصد إسكات الخصم . فلما صعد نجم ابن حزم ، على سبيل المثال ونال " بالأندلس .. صيتا عاليا .. وكان لكلامه طلاوة وقد اخذت قلوب الناس "[111] لم يجد مخالفوه بدا من الركون الى اساليب لاتليق باهل القلم ف "شنعوا عليه وحذورا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم عن الدنو اليه والاخذ عنه"[112] ومن المعروف ان مصنفاته تعرضت للاتلاف "وأحرق بعضها باشبيلية " [113] استنادا غلى "فتيا ابن رزق "[114] بلغت

107- ابو عمر يوسف عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري : كتاب الانتقاء في اخبار الثلاثة الفقهاء : مخطوط الاسكوريال رقم : 1807 ورقة 2 وجه.

108 - نفسه : ورقة 2 ظهر.

109- والمقصود خلف مولى يوسف بن بهلول المعروف بالبريلي والمكنى ابا القاسم واشتهر بحفظه للمسائل، وله مختصر في المدونة حسن ، انظر : ابن بشكوال : المصدر السابق : ق 1: 169.

110- المصدر السابق : 73.

111 - القاضي عياض : ترتيب المدارك : ج 8 : 121.

112 - ابن الخطيب :الاحاطة في اخبار غرناطة : تحقيق محمد عبد الله عنان : مكتبة الخانجي : القاهرة : م 4: 1977 : 144 ، انظر كذلك المقرى : النفح ج 2 : 78 وابن بسام : الذخيرة : ق 1 م 1 : 168 - 69.

113 - ابن الخطيب : الاحاطة : م 4: 116.

114 - ابن الحاج : المصدر السابق : 291.

الوقاحة بالبعض ان أقدم على التجريح في شهادة كل من أخذ بالمذهب الظاهري في الفقه وان ثبت لدى الجميع انه" من اهل الخير والفضل مشهور"[115] هكذا ، فعلى الرغم من اشتهار احدهم بـ " الورع والزهد، مجتنبا للسلطان "[116] تعرض للتجريح والتقريع والشتم وكان" مشنوءا عند كثير من فقهاء قرطبة ".[117]

واصرار على الغاء الرأي المخالف ، لم يتردد فقهاء العصر ، امام عجزهم عن المناظرة ومقارعة الحجة بالحجة ، عن الركون الى اساليب اكثر دناءة ، والكيد " من طريق المغالبة واثارة العامة"[118] وحتى ابو الوليد الباجي الذي تفانى في اعادة الاعتبار الى مالكية منهارة ، لم يسلم من السنتهم "وقبحوا عند العامة ما أتى فيه ..حتى اطلق عليه اللعنة غلاتهم".[119]

صفوة القول ، ان البحث في القرن الخامس كفيل بالكشف عن التربة التي احتضنت بذور الانحطاط الفكري ، الذي مافتئ يزداد رسوخا خلال القرون اللاحقة،وابتعادا عما تحقق قبله من منجزات شاملة وشامخة . وأن العطاء الناتج عن تصدي ثلة من اهل القلم لمنحى الانهيار ، ومقارعة آثار التردي ، هو الذي حافظ لهذا القرن عن كثير من الاشراق ، الذي استمرت اضواءه تتألق وتخبو بعدئذ طوال عصر الانحطاط .

---

115 – ابن رشد : المصدر السابق : ج 3 : 1436.

116 – القاضي عياض : ترتيب المدارك : ج 7: 188.

117 – نفس المصدر والصفحة.

118 – ابن حزم :رسالتان له اجاب فيها : المصدر السابق ج 3 : 115.

119 – القاضي عياض : ترتيب المدارك :ج 8 : 123 ، انظر كذلك : المقري النفح : ج 2 : 68.

لائحة المصادر

1 - ابن بسام : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة : تحقيق احسان عباس : الدار العربية للكتاب : ليبيا تونس 1981.
2 - ابن بشكوال :كتاب الصلة : الدار المصرية للتاليف والترجمة 1966.
3 - ابن حزم :
أ - الرسائل : تحقيق احسان عباس المؤسسة العربية للدرسات والنشر : بيروت 1981.
ب - الاحكام في اصول الاحكام : تحقيق احسان عباس : منشورات دار الافاق الجديدة : الطبعة الثانية : بيروت 1983.
4 - ابن الخطيب : الاحاطة في اخبار غرناطة : تحقيق محمد عبد الله عنان: مكتبة الخانجي: القاهرة: 1977.
5 - ابن خاقان :
أ - مطمع الأنفس : تحقيق محمد علي شوابكة : دار عمار : بيروت 1983.
ب - قلائد العقيان : طبعة 1284 هـ.
6 - ابن رشد الفتاوي : تحقيق المختار التليلي : دار الغرب الاسلامي : : بيروت 1987.
7 - ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب : تحقيق شوقي ضيف : دا المعارف : القاهرة الطبعة الثالثة.
8 - ابن سهل : النوازل : مخطوط المكتبة العامة الرباط : رقم 838 ق.
9 - ابن عباد الرندي : الرسائل الصغرى : تحقيق بولس نويا :دار المشرق : بيروت 1986.
10 - ابن عبد البر النمري :كتاب الانتقاء في اخبار الثلاثة الفقهاء : مخطوط الاسكوريال : رقم : 1807.
11 - ابن عبد الملك المراكشي :الذيل والتكملة :السفر الثامن:تحقيق بنشريفة : مطبعة المعارف الجديدة : الرباط 1984.

12 - ابن فرحون :
أ - الديباج المذهب : تحقيق محمد الاحمدي ابو النور : دازالتراث للطبع والنشر: القاهرة 1972.
ب - تبصرة الحكام : مراجعة طه عبد الرؤوف : مكتبة الكليات الازهرية : القاهرة 1986.
13 - ابو حيان التوحيدي : الاشارات الالهية : تحقيق وداد القاضي : دار الثقافة : بيروت الطبعة الثانية 1982.
14 - الباجي ابو الوليد :فصول الاحكام : تحقيق محمد ابو الاجفان : الدا العربية للكتاب 1985.
15 - الحميدي : جذوة المقتبس : الذار المصرية للتاليف والترجمة 1966.
16 - الضبي : بغية الملتمس :دار الكتاب العربي : القاهرة 1967 .
17 - القشيري : الرسالة القشيرية : مكتبة مصطفي البابي الحلبي : القاهرة : 1940.
18 - القاضي عياض:
أ - ترتيب المدارك : منشورات وزراة الاوقاف والشؤون الاسلامية : الرباط .
ب - الغنية : تحقيق ماهر زهير جرار : دار الغرب الاسلامي بيروت 1982.
19 - المقري : نفح الطيب : تحقيق احسان عباس : بيروت 1968.
20 - الونشريسي : المعيارالمغرب : منشورات وزراة الاوقاف والشؤون الاسلامية الرباط 1982.
21 - Emmanuel charles dufourcq: L'Espagne chrétienne au moyen age :Armand colin

فهرست الموضوعات

El libro estudia cuestiones relativas a la historia de AL-Andalus durante el periodo de su gran auge en el occidente islamico medieval (Siglos X y XI)

la obra enfoca dichas cuestiones mediante una vision panoramica destando los elementos mas influentes en el desarrollo historico general de la época y subrayando los temas siguientes:

1 - "la Amma en la sociedad islamica medieval " (Perspectivas de investigacion através del modelo andalusi)

2 - " las obras y escritos de Lahn Al-Amma en el occidente islamico "(estudio critico y valoracion)

3 - Estudio historiografico y documental en la obra de Al-Makkari (Textos de la vida urbana, economica y social)

4 - El comercio y la "Rihla" comercial segun la literatura onomastico -Biografica andalusi

5 - Cordoba califal " Espectacular evolucion urbana en el occidente Islamico."

6 - El impacto de la espectacular evolucion urbana y arquitectural en el Fikh y la jurisprudencia andalusi.

7 - La Amma y las tendencias filosofico-religiosas en Al-Andalus durante el periodo califal.

8 - El Espacio Cultural y la evolucion del derecho y la Jurisprudencia en Al-Andalus durante las Taifas.

El libro se basa en una materia muy diversa, editada y manuscrita que brinda la rica y gran biblioteca arabe y arabigo-andaluza.

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب قضايا تتعلق بتاريخ الاندلس وهي في ذروة عطائها الحضاري بأقصى الجناح الغربي لدار الاسلام، خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة (العاشر والحادي عشر للميلاد). وتتراوح مواضيعه بين الاهتمام بمناحي الحياة الاجتماعية والاجتماع اللغوي، وأحوال الاقتصاد والتجارة، ومستويات النمو العمراني والحضري، فضلا عن المستجدات في مجالات الفكر والثقافة، والمنجزات في ميداني التنظيم والتشريع. وذلك وفق نظرة شمولية تتوخى الربط بين جميع هذه المستويات، في جدلية تاريخية تنحو إلى الإحاطة بالعناصر الفاعلة والمتفاعلة في الواقع، وتستهدف الغوص في العمق للكشف عن الأسس المتحكمة في المسار التاريخي العام، اعتمادا على أوثق المصادر العربية والاندلسية المطبوعة والمخطوطة.

الثمن : 35 درهما